37 روائع الأدب العالمي

# هل تحبين "برامس"؟

تأليف الكاتبة الفرنسية

## فرانسواز ساجان

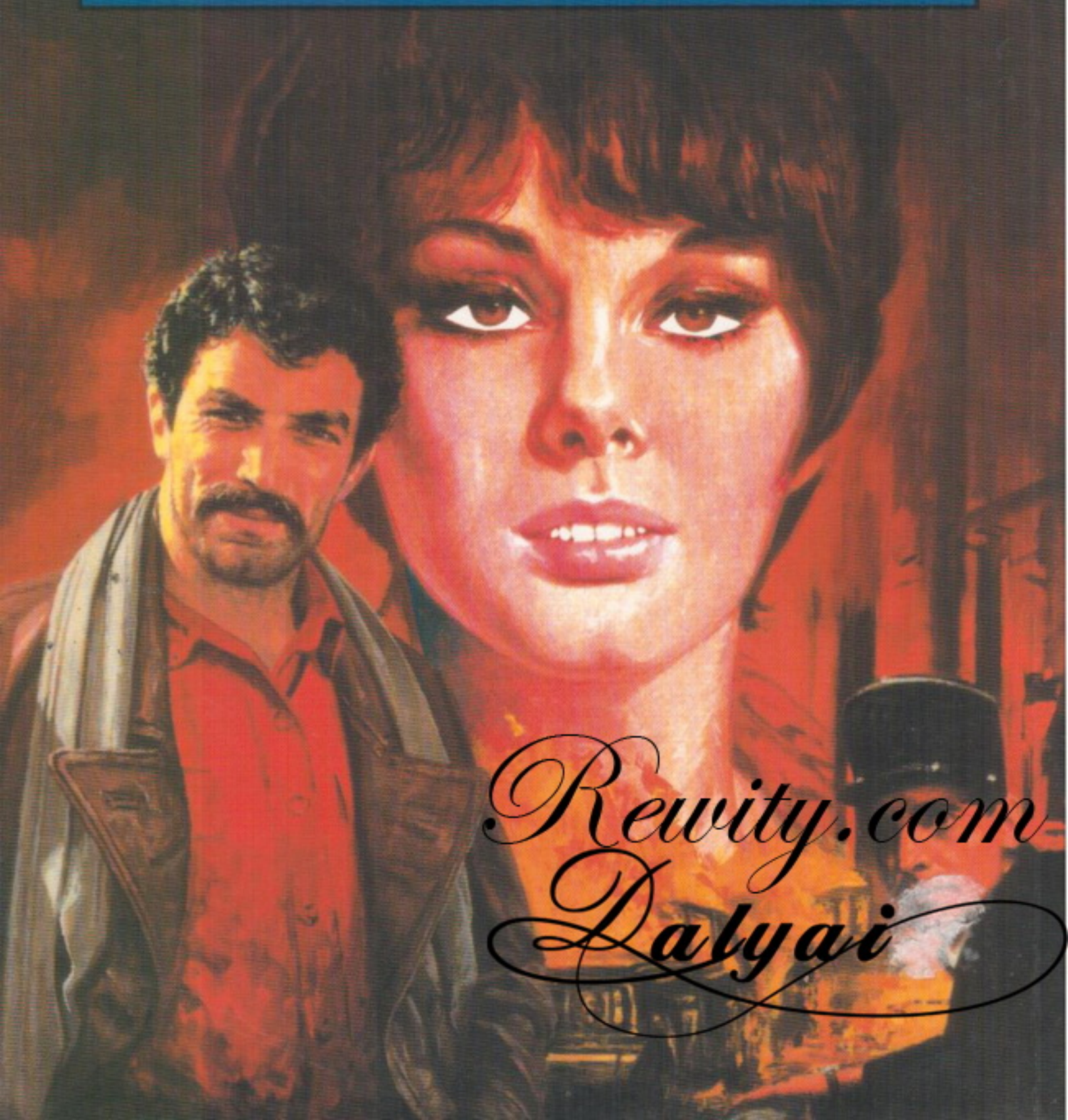

Rewity.com
Dalyai

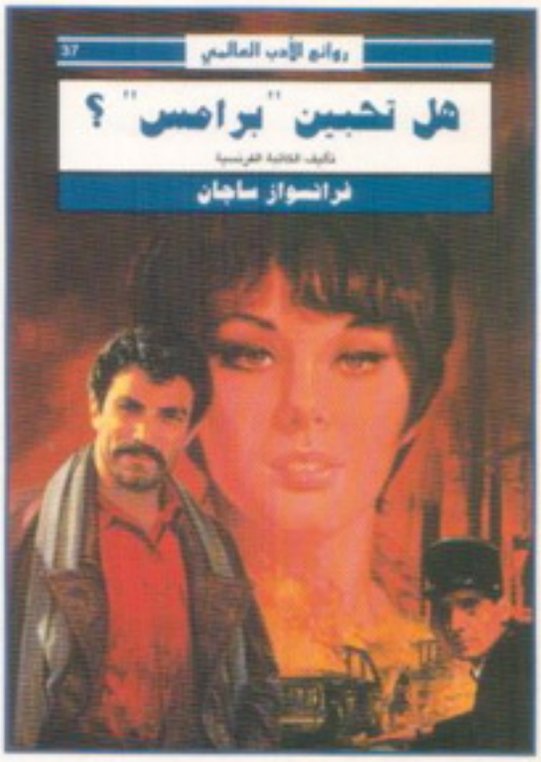


"فرانسواز ساجان"
كاتبة رومانسية ومسرحية فرنسية

دخلت "فرانسواز ساجان" مبكرا إلى مجال الأدب. تنحدر "فرانسواز" عن أسرة من الطبقة البرجوازية الكبيرة، ونشأت في وسط شبه بارد ظهر هواؤه في أعمالها. قضت طفولتها بلا أي مشاكل بعيدة عن مأساة الحرب العالمية الثانية. بمجرد أن تجاوزت مرحلة المراهقة شهدت نصرا مدهشا مع روايتها الأولى Bonjour tristesse واندفعت بشدة نحو طابور المشاهير. جذبت العامة والنقاد، ولكنها صدمت إلى حد ما الرأي العام لكونها أول من تجرأت في التحدث بلا خجل عن الرغبة الجنسية من وجهة نظر امرأة. في سن التاسعة عشرة ها هي ذي قد بلغت وصورت، وهذا ما أضاف مزيدا من الوضوح إلى إدراكها المستنير لجيل بلا مثل أعلى. إن نموذج حياتها كثير الجلبة، وحبها للسيارات الرياضية ورحلاتها لشاطئ "الأزور" كل هذا أضاف إلى نثرها العصبي أصالة المواقف المُعاشة لكنها لم تخف إدراكها بصعوبة الحياة.

على المستوى الأدبي هذا الإدراك الخاص بالعالم ينعكس من خلال التحليل النفسي المتروك عمدا إلى حالة التجريب والنزوع إلى تحليل الشخصيات باستخدام الجمل القصيرة وأحيانا الجوهرية. إن شخصيات "فرانسواز ساجان" تضلل همها وتتحمس للاستسلام للوهم الزائل للرفاهية، هذه الشخصيات لا تعيش ولكنها على الأكثر توجد. تفكر حينذاك في "ف.س فيتزجيرلد" بالنسبة للنبرة العامة لزوال الوهم أو في "الغريب" لـ"ألبرت كامي". الأعمال التالية، "ابتسامة معينة" عام ١٩٥٦، "هل تحب برامس ؟" عام ١٩٥٩ التي مثلها "أناتول ليفاك" في عام ١٩٦١ على الشاشة و"السحب العجيبة" عام ١٩٦١، "حارس القلب"، "نوبة الاستسلام" عام ١٩٦٨ و"المرأة المشوهة" عام١٩٧١ نقلت بالمماثلة موضوعات الهم والفرار من الكحول. أجبرها حادث السيارة في عام ١٩٥٧ على البقاء عدة أسابيع في فترة نقاهة وخرجت منها بقصة "السموم" وتعد بمثابة استبطان بشكل يومي.

انجذبت إلى المسرح ومن ثم كتبت عدة مسرحيات منها: "قصر في السويد" عام ١٩٦٠، "الفستان البنفسجي" و"فالنتين" عام ١٩٦٣ "العنف المضاد" عام ١٩٨٧، وقامت بتجربة الإخراج مع رواية "السعادة". لما كانت متعددة المواهب عملت لبعض الوقت في السينما باقتباسها للسينما رواية (السرخسيات الزرقاء) عام ١٩٧٦ ثم رواية "دم بورجيا" للتليفزيون عام ١٩٧٧. هذه المرأة -التي قابلت "كارسون ماكولر"، "ترومان كابوت"، "تينس ويليامز" و"جان بول سارتر"-نشرت ذكرياتها (مع أفضل ذكرى) في عام ١٩٨٤ والتي ذكرت ببعض الرقة العصر الكبير لـ"سان جيرمين دبريه". ظهرت بعد ذلك روايات أخرى: "منزل راكول فيجا" عام ١٩٨٥ و"الأعذار" عام١٩٩١ و"كآبة الرحلة" عام ١٩٩٤.

ISBN 9953-38-002-3
9 789953 380025

هل تحبين "براهس"

# هل تحبين "برامس"

تأليف
**فرنسواز ساجان**

ترجمة
**حلمي مراد**

الناشر
**دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع**
دمشق – بيروت
تلفون : 00 961 1 803 674 فاكس : 00 961 1 790 223
E-mail : darbachir@terra.net.lb

**جميع الحقوق محفوظة**

جميع حقوق الترجمة والتأليف وغيرها محفوظة لشركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.
وذلك بموجب الإقرار والتنازل الموثق لدى وزارة العدل – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق – مكتب شمال القاهرة – توثيق مصر الجديدة – جمهورية مصر العربية – تحت رقم ١٦١٩ ا لسنة ١٩٩٨ .
ولا يحق لأي كان نشر أي قسم أو جزء من هذا الكتاب أو من مطبوعات كتابي أو كتابي أو أي كتاب يحمل إسم الكاتب / حلمي مراد وبأية وسيلة كانت ... إلا بعد أخذ موافقة خطية من
( شركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م. )
**طبع هذا الكتاب بإذن خاص من شركة دار ميوزيك**

الإسم الأصلي للكتاب

**AIMEZ-VOUS BRAHMS...**

إسم المؤلف

**FRANçOISE SAGAN**

# فرانسواز ساجان
# مالها وما عليها!

كاتبة في الرابعة والعشرين من عمرها.. لا تكاد تكتب قصة -من ١٨٠ صفحة- حتى تهتز دور النشر في العالم للحدث الكبير.. فيطبع من القصة في فرنسا وحدها نصف مليون نسخة!.. وتترجم إلى عشرين لغة!.. ويتنافس عليها خمسة أو ستة من كبار مخرجي السينما!

إنها أديبة فرنسا الجديدة "**فرانسواز ساجان**".. فمن هي "**فرانسواز ساجان**"؟

وما حقيقة موهبتها الأدبية؟.. أهي موهبة أصيلة تستحق هذا المجد السريع الذي واتى صاحبتها كالبرق الخاطف؟.. أم هي موهبة عابرة لمعت فجاة بمحض المصادفة أو بفضل توفيق غير متأصل، ولن تلبث أن تخبو وتنطفئ، بعد أن تستنفد طاقتها المؤقتة؟

وثمة سؤال آخر يتداوله قراء "**ساجان**" في جميع البلاد: هل جاءت قصصها ثمرة تجربة "شخصية" واقعية.. أم مجرد خيال أدبي؟

وإذا كانت هذه القصص ثمرة تجارب شخصية، فكيف أتيحت لها هذه التجارب في سنها المبكرة، وهي التي كتبت قصتها الأولى "صباح الخير أيها الحزن" قبل أن تكمل التاسعة عشرة من عمرها؟

ثم.. هل احتفظت "**ساجان**" في كتابها الرابع هذا، بالمستوى الأدبي الذي قدمته للعالم في كتابها الأول؟.. وما نسبة الكتاب الجديد -من حيث الجودة والفن القصصي- بالقياس إلى الكتب الثلاثة السابقة؟

إلى عشرات من الأسئلة الأخرى التي تحير أذهان قراء كتب "**ساجان**" على وجه العموم، وسنحاول في هذه الصفحات أن نجلو بعض ما أثارته كتب هذه الأديبة الشابة من عواصف القدح والمدح على السواء..

## تضارب في وجهات النظر

ولن نرجع الآن إلى ما قاله النقاد في كتب "**ساجان**" الثلاثة الأولى، وإنما حسبنا ما قالوه في هذا الكتاب الجديد.

وسوف ترى منه مبلغ تناقض الآراء واختلاف وجهات النظر في مكانة "**ساجان**" الأدبية!

فبينما يقول أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية –ولم تحدد صحيفة "**جازيت دي لوزان**" التي أوردت هذا القول اسمه مع الأسف: "لقد أدت "**ساجان**" في هذا الكتاب دور جراح القلوب النطاسي!.. نرى ناقدا صحفيا يقول عنه: "تستطيع أن تقرأ الكتاب كله في القطار بين باريس وإحدى الضواحي، وتستطيع أن تلقي به من نافذة القطار إذا كان المنظر من النافذة جميلا، أو إذا كانت المسافرة الراكبة بجوارك جميلة!

ومن ناحية أخرى، نرى صحيفة "**التايمز**" اللندنية الرصينة تقول على أثر نشر الترجمة الإنجليزية للكتاب في الأسبوع الماضي: "أن أسلوب مس "**ساجان**" في هذا الكتاب أسلوب بارع متألق بلا نزاع"..

ويقول الناقد المشهور "**دانيل جورج**" في صحيفة "**الديلي تلجراف**": أن "**كوليت**" ما كان يمكنها أن تعالج موقفا شائعا كموقف بطلة الرواية بمثل اللباقة التي عالجته بها "**ساجان**"!"

أما صحيفة "**سبكتاتور**" ذات المكانة الكبيرة فتقول: "إن هذا الكتاب هو خير ما كتبت "**ساجان**" منذ كتابها الأول "صباح الخير أيها الحزن".

وصحيفة "**بوكمان**" البريطانية أيضا تشترك في المعركة فتقول بغير تحفظ: "إن هذه القصة ممتعة للغاية، ومكتوبة بأناقة نادرة.

بل إن صحيفة "**ذي ليسينر**" –المستمع– الإنجليزية، تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول: "ما أمتع روايات "**فرانسواز ساجان**". إن هذا الذكاء الجميل ما إن يعكف على العمل حتى تنعقد بينه وبين القارئ صداقة، تدور وتدور في الضوء حتى تصبح شفافة خالصة!"

وهكذا ترى أن التحمس للأديبة الفرنسية لم يقتصر على مشايعيها ومواطنيها الفرنسيين وحدهم، أو على **الشباب الباريسي ونقاد الصحف الفرنسية** فحسب، وإنما تعدى وطنها إلى بلد كإنجلترا، عرفت صحافته بالرصانة والتحفظ الشديدين في موازينها الأدبية، ورغم ذلك فإن كبريات الصحف البريطانية قد تخلت عن وقارها واتزانها في الحكم كما رأينا، وتشيعت للأديبة الفرنسية الشابة بالحماس الذي رأيناه في تعليقاتها السابقة!

## أديبة متواضعة!

والآن، تعال نستطلع رأي "**فرانسواز ساجان**" في نفسها، وفي إنتاجها.. ترى ماذا تقول؟

إنها تنبذ الغرور جانبا، لتقول في تواضع كبير: "قبل أن أدرك الشهرة كنت أتطلع إلى الشهرة وأسعى إليها، أما الآن وقد بلغت ذلك، فالذي يهمني هو أن أكتب كتبا جيدة. وأعتقد أن ٩٠ في المائة من نجاحي راجع إلى أنني ظهرت في الوقت المناسب، و١٠ في المائة إلى قيمة ما أكتب من الناحية الأدبية!"

ولعل هذا التواضع الجم، من أسباب نجاحها ومحافظتها على المستوى الذي رفعها إليه كتابها الأول.. فإن المجد العريض الذي دان لها وهي بعد صبية دون العشرين، لم يدر رأسها أو يسلمها للغرور، وإنما –على العكس– حفزها وضاعف من حماسها للإنتاج والإجادة فداومت على الكتابة، وأخرجت الكتاب تلو الكتاب.. حتى بلغت في كتابها الرابع هذا ذروة –في التحليل النفسي لأبطال قصتها– لم تبلغها في أي من كتبها الثلاثة السابقة.. كما سترى.

## هل كانت هي بطلة قصصها؟

وإذا كانت جمهرة القراء قد اتجهت إلى الظن أن توفيق "**ساجان**" في كتبها السابقة كان مرجعه أنها –فيما رجحوا– قد عاشت الحياة التي صورت عليها بطلات تلك القصص، وقد كانت البطلة في كل منها شابة في مثل سنها، فلا يمكن أن يصدق هذا

القول على كتابها هذا، وبطلته امرأة في التاسعة والثلاثين، قد انحدرت نحو خريف الحياة!

وعلى ذكر الحياة الطليقة التي يتهمون "**ساجان**" بانها قد عاشتها بشخصها، وبأنها تكتب انطباعاتها عنها بحكم التجربة الذاتية، تدفع هي عن نفسها هذه الفكرة فتقول، بفلسفتها "الوجودية الخاصة":

يتهمونني بانني لا أحترم شيئا.. ولكنني أؤمن مثلا بالأمانة. والأمانة في نظري هي أن يحترم المرء رأيه في قيمة من القيم. والقيمة التي أحاول ما استطعت أن أحترمها هي "الأدب". ولكنني أسعى أيضا لاحترام حياة الغير، وأحترم العاطفة الشغوف أيا ما كانت، في الحب، في الحياة، في المهنة، لأن الشغف شكل من أشكال الكرم. وهناك الحرية أيضا، فإن حرصي على أن يحترم الناس حريتي يدفعني إلى احترام حريتهم."

ثم تقول: "إني أحترم أوضاع المجتمع بالقدر الذي يجعل الحياة على أقل درجة ممكنة من التعقيد. فانا لا أسكر حتى أرتمي تحت المائدة، لأنني إذ ذاك سأكون مضطرة إلى أن أنهض مرة أخرى!"

## تتبع حبيبها إلى الهند!

على أنها لا تنفي عن نفسها الحب، والمرح.. إذ تضيف: "كنت فيما قبل "أي قبل زواجها" أقتني سيارات السباق المسرعة، وأرقص كل ليلة، وأعود في الفجر، وأقضي حياتي متنقلة بين ربوع "**الكوت دازور**"، وحولي دائما زمرة من الأصدقاء. ويبدو لي اليوم أن تلك الحياة التي كنت أحياها قد تدفقت علي تدفق الشلال: النجاح، والمال، والأصدقاء في وقت واحد. فكنت أعيش وسط هذا التيار وأنا أضحك منه وأتبع مجراه، ولو قد مر بي فتى هندي وسيم فقال لي: "تعالي عيشي في الهند"، وكنت أحبه، لتبعت هذا الهندي الوسيم إلى الهند!

وإذا أمعنت الفكر، رأيت أنني أواصل نفس أسلوب معيشتي، من حيث الأفعال، ولكن يبدو لي أنني لن أستطيع الآن أن أتبع هنديا إلى الهند. وشرح هذا عسير. كل ما **في الأمر أن حياتي قد اتخذت وجهة أخرى: فقد** تزوجت. وقبل الزواج، كانت قد دهمتني كارثة السيارة التي **تحطمت بي**".

## أسطورة المناعة من كل سوء تتحطم!

والواقع أن حادث السيارة المذكور كان نقطة تحول خطير في نفسية "**ساجان**" وتفكيرها. فقد كانت –حتى وقوع ذلك الحادث– تحسب نفسها في مأمن من الكوارث والمرض، ومن كل سوء.. وإذا بها تصحو في المستشفى، بعد غيبوبة دامت يومين، لتجرى لها جراحة عاجلة، تبعتها جراحات أخرى عديدة. ولم تسترجع قدرة ساقيها على الحركة إلا بعد ثلاثة أشهر. ثم خرجت من المستشفى وهي لا تكاد تتحكم في أطراف جسمها، وفي نفسيتها أشباح العاهات المستديمة!.. ولم تلبث أن دخلت مستشفى "**جارش**" للأمراض العصبية، لتستفيق من آثار عقار مسكن كانت قد أسرفت في تناوله.

وتتحدث "**ساجان**" عن نزلاء ذلك المستشفى من "المجانين"، فتقول: "كانت تلك صورة كاريكاتورية للعالم الخارجي، فقد كان الناس يتخاطبون ولكنهم لا يفهمون بعضهم بعضا. وكانوا يعيشون في وئام، وإن كان كل منهم منقطعا عن الآخر، وأذكر سيدة كانت لا تفكر إلا في كلبها –وكان كلبا خياليا لا وجود له!– وقد جعلني ذلك أفكر في أولئك الأشخاص الذين يتحدثون عن موهبتهم، وهم لا موهبة لهم.

## لوعة الحب ليست هي أقسى الفواجع!

وخرجت من المستشفى للمرة الثانية. وعاودها الألم الشديد، ورغم ذلك منعها الأطباء من تناول المسكنات، وسرى الألم في أعصابها شديدا حادا، ثم خفت حدته بعد شهرين من الاستجمام في جنوب فرنسا، لدى بعض الأصدقاء. وكانت تلك

المنطقة بالذات مسرح حريتها وبهجتها مع رفاقها في الماضي. أما الآن فلم يكن يستطيع أحد أن يخفف عنها آلامها، فتناهبتها الوحدة القاسية.

ستة أشهر من المرض المقعد والعزلة عن عالم الحركة، علمتها أن أقسى الفواجع ليست هي لوعة الحب، بل المرض والعجز. أول عناصر السعادة إذن هي صحة البدن، وليس أروع من النعيم الذي يجده المرء في لحظات التجاوب مع الأرض، على شاطئ البحر، ومع الضوء والكائنات والأشياء. وليس أمتع من أن تكون للمرء حوافز تدفعه، ومطامح ومشروعات، يجد فيها القوة المحركة.. إن "**ساجان**" تفضل حياة لا تجري على وتيرة واحدة، بينما يفضل البعض حياة مستوية تنظمها العادات المتبعة والحنان الهادئ الذي يتقاسمه الرجل والمرأة!

## لماذا يحقد الناس على شبابها؟

وتثور "**ساجان**" على من لا يغتفرون لها المجد وهي في ريعان شبابها. تثور في ذلك على الفرنسيين "**المرتابين**"، وتقارنهم بالأمريكيين الذين يحتفلون بنجاح الشباب. وتتساءل لماذا يحقد عليها الحاقدون؟ هل لأن كتبها قد جلبت لها المال الوفير؟ أليس من حقها هذا الكسب ما دامت هي المؤلفة؟ ولماذا لا يتولى معارضوها منع صغارهم من مطالعة كتبها ماداموا لا يرضون عنها؟ ولماذا يتحدث الناس بنهم عن حياتها الخاصة، وهي التي لا تتدخل في حياة الناس الخاصة؟ لكأنهم يريدون أن يروا فيها مصداق الصورة التي أنشأوها لأنفسهم عنها!

## لماذا لا تكتب إلا عن الطبقة البورجوازية؟

ومن المآخذ التي يأخذها البعض على "**ساجان**" أنها لا تصف في كتبها إلا وسطا محدودا من الطبقة البورجوازية التي ينخرها الفساد!.. لكنها ترد على هذا بأنها نشأت في هذا الوسط، **فهي تعرفه، ولن تكون إلا منافقة** إذا راحت تكتب عن الفلاحين مثلا. وهي لا تعير أية أهمية لهذا التمييز بين الطبقات، فالإنسان بعواطفه وانفعالاته هو هو في جميع الأجواء!

وينعى عليها آخرون أنها لا تأتي في كتبها بحل للمشاكل التي تعرضها. ولكن هل تقدم الحياة –مع المشاكل– حلولا لها؟ وصحيح أن قصصها تقوم على فكرة وحشة الإنسان ووحدته، ولكن فيها الحب أيضا. غير أن الحب شيء معقد، فهو قد لا يثير إلا عطفا أو شعورا بالعرفان، ولا يثير حبا يبادله. والواقع حولنا مليء بالرجال والنساء الذين يبحث كل منهم عمن يكمله ويتجاوب معه. وقد أصبح الزواج السعيد، منذ أمد طويل، شيئا نادرا. إنه ممكن –في رأي "**ساجان**"– بنسبة واحد إلى ألف! ولكنه ممكن، وهي تتمناه للجميع!

وقد سألوها أخيرا في التليفزيون: "إذا كانت لك ابنة، فهل تفضلين أن تكون خبرتها كخبرتك؟"

فأجابت: "قطعا لا! إنني أتمنى لها أن تلقى في الثامنة عشرة من عمرها رجلا يهيم بحبها وتهيم بحبه، وأن يستمر هذا الحب طيلة حياتهما، وأن يموتا في سن الثمانين ويدها في يده!"

ولكن الواقع –للأسف– لا يتيح للعواطف مثل هذا الجمال!

## تكتب القصة الطويلة في ٢٧٠ ساعة!

وقد أورد "**فيليب بليك**" في كتاب له صدر حديثا، أنه سأل "**فرانسواز**" عن الوقت الذي تستغرقه في الكتابة، كل يوم، فأجابت:

"لقد كتبت ("صباح الخير أيها الحزن" في نحو شهرين أو ثلاثة، كنت خلالها أكتب لمدة ساعتين أو ثلاث كل يوم. أي أن كتابة الكتاب كله لم تستغرق منها أكثر من ٢٧٠ ساعة، على أقصى تقدير، بمعدل ساعة ونصف ساعة كل صفحة).. ولكن كل كاتب يعلم أن الساعات التي يجلس فيها ليخط أفكاره بالفعل على الورق، تحجب

وراءها –وقبلها– أضعاف هذا الوقت من التفكير الطويل، الذي يختمر في بطء شديد،، في المخيلة!

## نضج في الطفولة..
## وطفولة في الشباب!

بقي أن تعرف شيئا عن نشأة "**ساجان**"، وأعوام يفاعتها، وقد روت هي قصة هذه الأعوام للكاتب الفرنسي "**جورج بلمون**".. وإليك خلاصة قصتها:

كان والدها صاحب مصنع في منطقة "**دوفينيه**"، وكانوا يقطنون مدينة "**ليون**". وإنها لتذكر صورة البيت الريفي الذي انتقلوا إليه أثناء الحرب، وهو بيت ذو حديقة شاسعة، كانت طفولتها فيه هانئة على وجه العموم. ورغم لطف والديها وتدليلهما فإنها كانت تشعر بمرارة الوحدة، إذ كانت أصغر الأبناء –وكان أخوها وأختها يكبرانها بأعوام كثيرة– فقضت طفولتها مع أشخاص ناضجين، ألقى نضجهم مسحته على هذه الطفولة، وقد انعكس الوضع اليوم فطغت مسحة من الطفولة على شبابها الناضج!.. فهي لا تفهم ولا تقر نظرة الكبار إلى كثير من الشؤون: فمثلا لا يبدو لها طبيعيا أن يحكم على تصرفاتها شخص سواها، بينما يبدو للكبار أن تصرفات الإنسان ينبغي أن تحكمها أوضاع المجتمع.. ولم تكن وهي طفلة في المدرسة سعيدة بصحبةرفيقاتها الصغيرات، إذ كانت مرهفة الحساسية، كثيرة التلعثم. وكانت أمها تلبسها القبعات دائما فوق خصلات طويلة من الشعر –كانت التلميذات يعبثن بشدها!– وتلبسها الجوارب الطويلة حتى الركبة، (في حين كانت زميلاتها يلبسن الجوارب القصيرة!.) وفيما عدا ذلك، تذكر من طفولتها شيئين بارزين: إنها كانت تحصل على أعلى الدرجات في الامتحانات.. وأن ترتيبها في الفصل كان الأولى، طيلة مرحلة الدراسة الابتدائية.

## العقدة التي أفقدتها الثقة بنفسها!

وذات يوم، وهي في الثانية عشرة من عمرها –وكانت في باريس، بعد أن نزحت أسرتها من "**ليون**" عقب الحرب– دعتها بعض زميلاتها لتلعب معهن، وأخذن يسخرن منها أكثر الوقت، فعادت إلى بيتها باكية... وفي اليوم التالي غيرت مسلكها. قصت شعرها، ولبست جوارب قصيرة، وبدأت منذ ذلك اليوم تهاجم الآخرين! وأصبح دأبها في المدرسة مهاجمة رفيقاتها، حتى استردت ثقتها بنفسها فأقلعت عن هذه الوسيلة التي اتخذتها للدفاع عن نفسها!

## بدأت الشقاوة في سن ١٢
## والكتابةفي سن ١٤

في ذلك الوقت كانت أسعد في البيت منها في الخارج. وكانت مولعة بالقراءة، تلتهم كل ما يقع في يدها. ولم تكن عائلتها تفرض رقابة على مطالعاتها، فقرأت للأدباء الرومانتيكيين العاطفيين، ولم تلبث أن شغفت بقراءة "**كامي**".

وقد شاع عنها أنها نشأت نشأة طيبة، وفجأة –في سن الثامنة عشرة– استبدلت حياتها الرزينة بحياة طليقة. لكن الواقع غير ذلك، فقد بدأت "**الشقاوة**" بين الثانية عشرة والثالثة عشرة. وحدث أن طردتها إحدى المدارس الثانوية، فراحت تتسكع في الشوارع، وتنفق الساعات الطوال في المشي أو القراءة، أو في استطلاع الأشياء واستعراض الناس. وفي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بدأت تكتب ما يعن لها من قصص قصيرة أو أبيات من الشعر العاطفي الفلسفي. وكان إنتاجا سريعا غثا، أعدمته فيما بعد!

وفي تلك السن أحبت الموسيقى –الكلاسيكية و"الجاز" على السواء– ثم بدأت ترتاد كهوف الوجوديين في حيهم المعروف "سان جرمان دي بريه" بين الساعة الخامسة والسابعة من أيام العطلات، ولا سيما الخميس والسبت والأحد، حيث كانت ترقص مع الشباب اللاهي.. ثم تسرع بالعودة إلى البيت لاهثة فتبلغه في الثامنة، كي تتجنب

تانيب والديها لها!

وفي هذا القدر من الحديث عن "**ساجان**" الكفاية.. فتعال نقرأ الآن مقدمة المترجم.. تليها الترجمة الكاملة للكتاب.

## مقدمة هذا الكتاب
## بين الكاتبة وقصتها

هذه قصة امرأة تفارق الشباب، كتبتها امرأة في ريعان الشباب. قصة امرأة قضت عليها أوضاع المجتمع الحديث بالوحدة الموحشة، كتبتها امرأة أقبل عليها الجيل الجديد، ووهبها المجد، والثروة الطائلة، في مثل لمح البصر!

ونحن لا ننعى على الأديب عمله إذا صور لنا -بفطنته الملهمة وإحساسه المرهف- شيئا غير حياته وسيرته، ففي ذلك إلزامه بما لا يلزم. ولسنا نزعم من ناحية أخرى أن كاتبة هذه القصة -وهي بعد في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمرها- لم تلمس من خلال خبرتها الشخصية أو من خلال الجو المضطرب الذي تعاصره، مأساة هذه المرأة المتحررة. ومهما يكن من أمر الصلة الواقعية بين سيرة الأديبة "**فرانسواز ساجان**" وسيرة بطلة القصة "**بول**"، فنحن نؤمن -مع "**فاليري**"- بأن فهم الأثر الفني لا يقتضي الإلمام بسلوك مبدعه، ولا يتوقف على استقصاء حركات الفنان وسكناته، وعلى تحري ملابسات حياة خاصة قد تشبه حياة الملايين من الناس، لأن للأثر الفني كيانا مستقلا، متكامل الأجزاء والعناصر، يغنينا بمحضره عن القيل والقال.

حسبنا إذن أن ننظر في هذه القصة الجديدة كما طلعت علينا فصولها، لنجتلي معانيها وأوجه الفن فيها، ولنعرف حق قدرها بمقاييس العقل والقلب، وهي التي تحدد لنا مكانها في دنيا الأدب، دون أن نحتفل بما يرويه عن الكاتبة هواة الطرائف من المتندرين، ودون أن نصغي إلى الضجة التي أثارها حول اسم "**فرانسواز ساجان**" دعاة المجون وتجار السينما.

## هل تحبين برامس؟

ولعل أول ما يجب علينا أن نفهمه هو عنوان القصة. إن كتابا بهذا العنوان -وترجمته الحرفية قد تكون: "هل تحبون برامس؟"- ليوحي منذ أول وهلة لطالب القراءة بانه واحد من تلك الكتب التي انتظم صدورها أخيرا للتعريف بكبار الموسيقيين، ونشر الثقافة الفنية بين الجمهور، وتبسيط العلم لغير من تخصص فيه. ولكن الكتاب لا يرمي إلى تعريفنا بحياة هذا الموسيقي الألماني العظيم، الذي ولد عام ١٨٣٣ في مدينة "**هامبورج**" وتوفي عام ١٨٩٧، أو إلى شرح ألحانه الشهيرة وتحليلها، لإظهارنا على عبقريته وعلى منهجه في التأليف. وإنما الكتاب قصة تجري حوادثها في أيامنا هذه في باريس ويعرض لبطلتها المنزوية في ركن ضيق من الحياة أن تقبل الدعوة ذات مساء إلى حفلة موسيقية يعزف فيها "**كونشرتو**" رائع من موسيقى "**برامس**"، فيصبح "**برامس**" بالنسبة إليها رمزا لا للموسيقى وحدها بل لصميم الحياة الناضرة العامرة التي تفتقدها، حياة النفس المتفتحة، شباب الروح التي لا ينبغي أن تشيب...

وهنا خطر نود أن ننبه إليه. فقد يبدو العنوان بهذا المعنى سؤالا موجها إلى القراء. وإنها لدعوة جميلة حقا، تحثهم على الاستمتاع بالموسيقى المنعشة، وإيثار السعادة التي ترتوي من المناهل الصافية، وتجنب الميول الكدرة التي تؤدي إلى الألم العقيم.. إلا أنها دعوة تخرج القصة من نطاق العمل الفني إلى نطاق الوعظ والإرشاد والدرس الأخلاقي!

وذلك ما حرصت المؤلفة على التبرؤ منه، وما نود لقارئ هذه الترجمة ألا يتورط فيه. كلا، لم تكتب "**فرانسواز ساجان**" هذه القصة دفاعا عن الأخلاق الفاضلة، ولم تتكلف فيها أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر، وإنما قصدت إلى تصوير النفس الإنسانية كما رصدتها -في إطار فن من فنون الأدب- عين بصيرة بقلوب النساء!

ولا شك في أن هذا هو الذي حدا بالكاتبة إلى العدول عن علامة الاستفهام في ختام عبارة العنوان. فمن البديهي أن كل سؤال بـ"هل" يستدعي جوابا بـ"نعم" أو "لا". ومن حق القصاصة ألا توجه لقارئها أي سؤال. إنها لا ترى في هذا الذي يبدو لنا سؤالا سوى حقبة هي أدل حقب القصة على معناها من أي عنوان آخر. ولقد استغنت بالفعل عن تلك الصيغة الاستفهامية القاطعة التي سجلتها المطبعة بالعلامة المعهودة على الغلاف

الخارجي، واستبدلتها -منذ صفحة الغلاف الداخلي- بنقطتين توحيان للقارئ بشيء أبعد مما تحويه كلمات سؤال عادي، شيء ناقص يدعونا إلى أن نتمه، شيء مجهول يحفزنا إلى مطالعة الكتاب على كل حال..

"هل تحبين برامس.." إنه سؤال يلقيه على بطلة القصة صاحبها الفتى، وليس سؤالا توجهه كاتبة القصة إلى قارئها المجهول.

## حلقة مفرغة

وما أعمق المعاني التي تنطوي عليها تلك النقط الخالية!.. ذلك إغفال مقصود، يفتح للمفكر بابا على كل أفق.. ولقد عودتنا "**فرانسواز ساجان**" على هذا الجو الفاتر، الذي قد يلتقي فيه البرد والحر، ولكن لا تنحسم فيه الأمور، ولا تنتصر قوة الإرادة أو شدة العزيمة، ولا يقر لامرئ تحت وطأته قرار. وهيهات لقلب حائر أن ينعم بما يجد! إنه جو مشبع بجراثيم التشكك والتردد.. إنه هذا البحر القلق في منتصف القرن العشرين، يطفو الناس على سطحه، فيعييهم تلاطمه، وقد يستمرئون ماءه الأجاج، بين شاطئ الخير الحسير ورمال الشر الواهية!.. وفي عناوين قصص "**ساجان**" السابقة -"مرحبا أيها الحزن" و"ابتسامة ما" و"بعد شهر أو بعد سنة" -ما يعكس لنا هذا اللون الحائل، لون الحياة المضطربة الحدود، وهو أبعد الألوان عن الوضوح الناصع المريح.

ولعل هذه الأديبة المحدثة، التي تتجنب الشرثرة والإطناب، قد أرادت بتلك النقط الخالية في ختام العنوان أن ترسم لنا الحلقة المفرغة التي يدور فيها أبطال القصة:

فهذه "**بول**" الرقيقة في التاسعة والثلاثين من عمرها، قد أصبحت أسيرة حريتها، بعد أن طلقت في نزق شبابها زوجا ثريا فتيا من أرقى أهل المجتمع.. ومضت تبحث عن ينابيع السعادة الشخصية التي ظنت أن أغلال الزواج تعوقها عن ورودها، فماذا نالت؟ نالت نشوة عابرة، لم تكفها فاستعادتها مع أكثر من عاشق، ثم زهدت في ذلك، ولم تستغرقها إلا علاقة ربطتها برجل يناهز الأربعين، هو "**روجيه**"، علاقة دامت الآن ست سنين، أخلصت له فيها الحب، دون أن تفلح في الاستئثار به!..

و"**روجيه**" هذا رجل قوي البنية، أناني، يحتاج إلى وفاء "**بول**" وحنانها، فيفزع إلى احضانها كلما نغص عليه منغص. ولكنه سرعان ما يسلو، فيدعها وحدها، ويخرج ليجول ويصول في ليالي باريس، وإذا واتته المغامرة انصرف إلى هوى ماجن رخيص، والغى مواعيده مع "**بول**"، متذرعا حيالها بكثرة أعماله وضيق وقته! غير أنه لا يجد في متع المجون ما يروي غليله، فيثور به السخط على حياته المختلة المشتتة، ويشتد شوقه إلى "**بول**"، لا سيما وقد أقبل عليها فتى وسيم هام بها، وغدا يلازمها، وربما سلبه إياها.

وهذا الفتى -"**سيمون**"- لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، طلعت عليه "**بول**" بوجهها الرقيق العاني ذات صباح، فعرف الحب الغامر.. تلك العاطفة الدافقة التي تملأ القلب والفكر وتملك على المتيم أمره.. وهو الذي لم يعرف قبل ذلك سوى افتتان المعجبات بحسنه، وعبثه بهذه أو تلك عبث الشباب السادر، وتهربه من كل جد ومسؤولية. وحب "**سيمون**" لا يتعثر في التقاليد، فهو لا يلتفت لفارق السن بينه وبين "**بول**"، وإنما يسعد بالتجاوب النادر بين نفس ونفس، ويريد أن يتزوج هذه المرأة لينتزعها من جهاد الرزق الذي تتجشمه في مجتمع خبيث، وليستكمل أركان سعادته الناقصة الطامحة المتلهفة.

ترى هل تفرح "**بول**" بهذا الحل الذي يخرجها من حياتها العرجاء إلى حياة مجزية موفورة؟ وهل تنتهز "**فرانسواز ساجان**" هذا الموقف السانح لتختم قصتها خاتمة طيبة، فيها تكافئ "**بول**" التي تعذبت، وتثيب "**سيمون**" الذي يصبو إلي المثل العليا، وتعاقب "**روجيه**" الغليظ على استجابته للشهوة وتخاذله عن الوفاء؟ إننا نتتبع الصراع الذي ينشب في قلب "**بول**" المستقلة، حتى نراها، تحت أحمال الماضي الزاخر بالشجون، ترزح إلى جانب ذلك الرجل.. الذي تعلم أنها لن تجده إلى جانبها...

## "كوليت" قبل "فرانسواز ساجان"

والقارئ المطلع على كتب الأدب الفرنسي المعاصر لا ينسى اسم أديبة سبقت "**فرانسواز ساجان**" في عالم القصة، واسترعت جميع الأنظار في أوائل هذا القرن حينما ظهرت على مسارح دور اللهو، ثم حينما توفرت على كتابة سلسلة من القصص

العاطفية بقلم جذاب جريء سجل اعترافات المرأة واسرارها.. وتلك هي "**كوليت**" التي توفيت في صيف ١٩٥٤ عن إحدى وثمانين سنة.

وقصة "**هل تحبين برامس..**" –على قصرها وما تحمل من خصائص مميزة– تشبه في جملتها وفي كثير من تفاصيلها قصة "**الشريدة**" التي روت فيها "**كوليت**" طرفا من تجاربها. فبطلة القصتين امرأة في منتصف العمر، تزوجت في شبابها، ثم طلقت، ونزلت إلى دنيا الأعمال لتكسب عيشها، وهناك لقيها من بين الناس إنسان صادق الحب، كبير القلب، ينشد الهناء في الاقتران بها، ويريد أن يمنحها يومه وغده، وأن يكفل لها حياة آمنة مطمئنة، فتميل فينة إليه، ولكنها لا تلبث حتى تفر من وده، إذ تلح عليها الذكريات الموجعة التي تشدها إلى أمسها، ويقعدها هموده العزم وفتور الهرم عن مجابهة حياة جديدة مشرقة.

## مع "الشريدة"

هذه "**رينيه**" تتشرد في المجتمع بعد أن انفصلت عن زوجها الرسام المبدع "**أدولف تاياندي**". لقد أحبته صبية وأنفقت في كنفه أعواما ثمانية، لم يرعو خلالها عن مجونه وكذبه. طلقته إذن واشتغلت بالتمثيل، مما جعل القوم ينظرون إليها شزرا، وإن باتت هي جادة في عملها، تستمسك بالفضيلة، وتتحفظ، لأنها تخشى تباريح اللذة. إن "**كوليت**" تكتب على لسان "**رينيه**" هذه السطور التي لا يمكن أن تخطها سوى امرأة:

"الوحدة.. الحرية.. عملي الطريف المرهق بما يشمل من حركات الممثلة والراقصة.. عضلاتي الهائنة الكليلة، والهم الجديد الذي يصرفني عن الهم القديم، ويدفعني إلى أن أكسب بنفسي قوتي، وثوبي، وإيجار مسكني، ذلك ما أصبح على الفور نصيبي، كما أصبح نصيبي أيضا هذا الحذر النافر، هذا الاشمئزاز من البيئة التي عشت فيها وتألمت، وخوف غاشم من جنس الرجال، من الرجال والنساء كذلك.. بل وهذا الشذوذ الذي سرعان ما تملكني ألا وهو شعوري بانني لست آمن شر أمثالي من الناس إلا حينما تعزلني عنهم خشبة المسرح، ويحفظني من أذاهم جميعا هذا الحاجز الناري"..

إنها تجلس أمام مرآتها، وتلاحظ ما أفسد الدهر من جمالها، ثم تنطوي على حسراتها، وتنقل إلينا "**كوليت**" **ما يسري في ضميرها:**

**إن النهوض بتكاليف الحياة شيء يستطيع المرء ان يتولاه بمفرده**، وأن يعتاده.. ولكن **السآمة وأنا وحيدة محمومة، اسعل في الليل الذي لا ينقضي**، وأبلغ على ساقين منهارتين تلك النافذة التي يطرق المطر زجاجها ثم أعود إلى فراش معروك لين، وحدي.. وحدي، وحدي..

الحواس؟ أجل، إن لي حواس.. حيية، ديدنها الجري على وتيرة واحدة، تسعد بالمداعبة العادية التي كانت تغمرها بالنعيم، وترهب كل تفنن أو تعقيد ماجن..

إني لا أطمع في شيء، ولا آسف على شيء.. حتى يحين لشقتي أن تغرق مرة أخرى.. حتى تحل الأزمة المحتومة التي أتطلع فيها برعب إلى الحزن يدنو بيديه الشديدتين الرفيقتين، فيحدو ويؤنس جميع لذائذي."

وما أدق هذا الوصف لوجدانها عندما سعى إليها من صفوف الجمهور رجل أعجب بها، فارسل إليها طاقات من الزهر، وراح يعبر لها عن حبه دون أن تحفل به في أول الأمر، بيد أنها لا تلبث حتى تضرب له موعدا، وهي تقول لنفسها: "لقد أذعنت –إني أعترف بذلك– إذ سمحت لهذا الرجل بأن يعود غدا، أذعنت للرغبة التي تحملني على أن أحتفظ فيه لا بعاشق، ولا بصديق، وإنما بمتفرج يشهد في نهم حياتي وشخصي.. إن الحرية ليست باهرة حقا إلا في بداية الحب، الحب الأول، يوم نقول ونحن ننزل عنها لمن نحبه: "خذ! إني أود لو أعطيتك أكثر.. لقد فات أوان الفرار، وقد لقيت مرة أخرى أيضا مرشدتي التي لا ترحم، تلك التي تخاطبني من صفحة المرآة.."

وسوف نجد في مواقف "**بول**" من "**سيمون**" –في "**هل تحبين برامس**"– أصداء لمثل هذه العبارات التي وردت في "الشريدة".

لم أعد من الصبا ولا من الحماسة ولا من الجود بحيث أبدأ الزواج من جديد، وأقدم على الحياة التي تشمل اثنين.. دعيني أنتظر، متزينة، متفرغة، وحيدة في غرفتي المغلقة، إقبال ذلك الذي اختارني له "حريما". إني أريد ألا أعرف منه سوى حنانه وجذوته، إني لا أريد من الحب –أخيرا– سوى الحب.

"لو شاء لعقدت له رباط عنقه، وأعددت قائمة الطعام للعشاء.. وأحضرت له نعليه.. وإنه ليستطيع أن يسألني في لهجة السيد الآمر: "إلى أين تذهبين؟". لقد

كنت أنثى، وهانذا أجد نفسي أنثى لاتعذب ولاستمتع بذلك..

جملة القول أن "**رينيه**" امرأة هجرت حياتها الطبيعية، وخرجت عن طورها في المجتمع، ثم هبت عليها نفحة من أمل، فتاقت إلى استعادة أنوثتها، غير أنها لا تجرؤ على استقبال الحب الجديد، لأنها تفطن إلى أن شبابها قد ولى، وأن زهرتها قد ذوت في الخبرة السابقة، وأن ماضيها المشحون بدواعي الأسى أشد سيطرة عليها من كل حافز. وتلك هي نفسية "**بول**" الواهنة كما حللتها "**فرانسواز ساجان**". ولكننا قبل أن نقرأ الفصول الأخيرة من "**هل تحبين برامس**"، وقبل أن نشهد ذلك الفراق الأليم الذي تنتهي به القصة، يحسن بنا أن نسمع هنا لحديث "**الشريدة**" وهي تقول في المعنى ذاته:

"أو لا يوجد سوى اللذة؟.. إن اللذة تشغل -في صحراء الحب التي لا حد لها -مكانا مشتعلا صغيرا جدا، بيد أنه من التوقد بحيث يصرفنا عن أن نرى في أول الأمر شيئا عداه. وأما أنا فلست فتاة جديدة كل الجدة ليعميني وهجه فحول تلك البؤرة المضطربة، يربض المجهول، والخطر.. ماذا أعرف عن الرجل الذي أحبه والذي يريدني؟ عندما ننهض بعد ضمة قصيرة، بل وبعد ليلة طويلة، ينبغي أن يعيش الواحد منا بجوار الآخر: بل أن يعيش الواحد بالآخر، وإذ ذاك سيخفي هو بشجاعة أولى خيبات أمله التي تأتيه مني، وساكتم أنا خيبات أملي، عن كبرياء وعن حياء، وعن شفقة، لا سيما لأنني كنت أتوقعها، وأخشاها، فقد سبق لي أن عرفتها.. أنا التي أهتز أمام بعض حركاته، وأطرب لسماعي نغمات بعينها تنبعث من جديد، أي جيش من الأطياف يتربص لي وراء ستائر مخدعي الذي ما زال مغلقا؟.. افهمني! إنه ليس الشك، يا حبي، هو الذي يهدمني.. ولا هي خيانتك المقبلة.. وإنما هو انحداري.. إنني لست امرأة شابة.. افهمني!

## مأساة المرأة العصرية

ولسنا نرمي بهذه المقارنة السريعة بين قصتي "**كوليت**" و"**فرانسواز ساجان**" إلى إثبات "السرقات الأدبية" على نهج النقاد القدماء، فذلك ضرب من الإحصاء العقيم، يطيح بسلبيته ما لكل عمل فني من وجود خاص أصيل. وإنما نود أن نسجل التشابه في الموضوع الذي طرقته في القرن العشرين أديبتان تكشفان عن قلب المرأة.

والحق أنه موضوع "نسائي" حديث جدا، يتصل اتصالا مباشرا بالعصر الذي انتهينا إليه. فما هكذا كان يعالج الكتاب في القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر، قصة المرأة التي تفشل في حياتها العاطفية. أجل، لقد كانت للمرأة مآسيها في كل زمان ومكان، ولكن أدباء ما قبل القرن العشرين كانوا يجدون المخرج للمرأة المنكوبة في أن تعيش بعد نكبتها مع بعض أهلها كأمها أو خالتها، وكانوا يدخلونها في أسوأ الحالات إلى دير من الأديرة تطوي في سكونه وخشوعه ما بقي لها من آلام الدنيا.. ومهما يكن من أمر تلك الحلول المعروفة، فإنها تعرض علينا لونا من التضامن الاجتماعي والروحي، كان يخفف عن المرأة شقوتها، ويعينها في بلائها، وهو هذا التضامن الذي اختفت معالمه من قصتي "**الشريدة**" و"**هل تحبين برامس**".

لقد تلاشى ذلك الحدب، وانتهى عهد الرأفة والنجدة، وأصبحت المرأة وحيدة، لا أهل لها ولا ملاذ، تستغني عن الرجل فتنزل ميادين الأعمال، حيث تكافح وتصارع وتتعرض للهوان، مما ينافي طبيعتها... حتى إذا غاض شبابها وأعياها الكد، راحت تجتر لوعتها، ولم يسعفها قلبها الجريح الذي باتت تتخنه ذكريات ماضيها، فهو لا يسعه إلا أن يقطع كل صلة بينها وبين الناس.

إن المرأة كالزهرة تتفتح مرة واحدة، وتذوي مرة واحدة، فما أقسى هذه الوحشة المريرة التي ادخرتها حضارة اليوم مصيرا لكثير من النساء!

## صيحات إيجابية

صورة رهيبة إذن تقدمها لنا "**فرانسواز ساجان**".. صورة الجدب يستولي شيئا فشيئا على أرض طيبة! ولكن أبلغ فلاسفة التشاؤم لا يستطيع أن يمنع صورة الجدب هذه من أن توحي لمتأملها بصورة الخصب والري والنضرة.. فالأضداد تتداعى في خاطر الإنسان.. ونحن نتمثل تلك الصورة الخضراء النائية، الشائقة، من خلال عنوان القصة البديع: "**هل تحبين برامس**". أجل، إننا لا نزعم أن هذه الأديبة الناشئة من الفلاسفة أو من علماء الاجتماع، ولا نحن نحشرها في زمرة كتاب الرواية ذات "الهدف" أو

"الرسالة"، بيد أن التأثر الذي تخلفه لنا قصتها لا يفتأ يردد في صدورنا وحيا إيجابيا سليما: "رفقا بالقوارير"!

وقد يعتبر الكتاب كله بحثا عن الحب، وتعريفا لمضمونه في محيط الجيل المعاصر. فقد هوت الإنسانية إلى عالم متهافت، يؤمن بالمادة، وينتهز الفرصة، ويؤله إرادة البشر ومنافعهم، ويخلط بين اللذة والسعادة، وهكذا ضل الناس عن الحب –بمفهومه الكامل– أي ذلك التجاوب الذي يضفي على الكون معناه العميق، تلك العاطفة التي تهب الحياة لمن يبذل نفسه من أجل شخص آخر، هذا النعيم الجوهري الضروري الذي ينشده "**سيمون**"، وتقصيه عن "**روجيه**" أنانيته وشهواته، وتفنى "**بول**" في انتظاره. إن المرء ليخبط في قفر جاف مميت إذا أخطأ ذلك المنهل النقي. وإهمالك الحب وتذرعك بالتوافه –كما يقول "**سيمون**" لـ"**بول**"– جريمة تقتضي الحكم بالإعدام، وتستتبع أشد عقاب، ألا وهو.. الوحدة! وما أروع صيحة هذا الفتى إذ يضيف:

– وليس يروعني شيء أكثر مما يروعني هذا الحكم، على أن جميع الناس يشعرون مثلي بهذا الخوف، ولكن لا يجرؤ واحد منهم على أن يبوح بذلك الشعور. أما أنا فتمتلكني الرغبة في أن أصرخ أحيانا.. إني خائف، إني خائف، أحبوني!

ولو لم تشتمل قصة "**ساجان**" الأخيرة على غير هذه الحكمة، لكانت خليقة بأن نقرأها وأن نتأملها!

## وفن قصصي

•

على أن قارئ هذه القصة سوف يجد –فوق ذلك– تصرفا فنيا في صياغتها لا سبيل إلى إنكاره، وحسبنا أن نشير هنا إلى لمحات منه:

وأول ما يخلبنا من صفات هذه الرواية إيجازها. والإيجاز فن عريق، يحظى اليوم بإقبال الجماهير، وليس أنسب منه أسلوبا لقصة تتركز امرأة واحدة بين رجلين، ولا تستغرق وقائعها إلا بضعة أشهر، ولا تكاد تنتقل مشاهدها بعيدا عن مدينة معينة هي باريس. إنها مجموعة قصيرة من اللقطات الموفقة في جملتها، تدل سرعتها على رشاقة، ودراية، وقريحة مواتية.

والقصة لا تجري في إطار خارجي، بقدر ما تجرى في داخل النفوس. فلا قيمة للأحداث –على قلتها– من حيث هي أحداث، وإنما هي مجرد ظروف هينة، مألوفة، تتيح للأبطال مواقف خاصة، تسفر في ضوئها عن عواطفهم وتتطور. وهذا الزهد في الملابسات والمفاجآت، هذا الإضراب عن التعقيد، وهذا الحرص على صميم الموضوع وصبه في بؤرة محددة، من مبادئ الفن "**الكلاسيكي**" الذي تسبغ بساطته على العمل رصانة وعمقا. ولا حاجة بمن يروي المأساة إلى تخيل النوازل الطاحنة، وحشد الكوارث الخارقة، وتكديس النكبات العجيبة، لكي يؤثر في القراء. فقد تكون أبلغ أحداث القصة عبارة صغيرة يفوه بها أحد أشخاصها على غير عمد، كهذا السؤال الضئيل الذي أصبح عنوانا للكتاب، بل ورمزا لحياة بأسرها: "**هل تحبين برامس..**" وفي القصة النفسية، لا شك أن أقوى تعبير هو التعبير المباشر، أي سياق تلك الخواطر التي تسري في وجدان الشخص، سواء أجهر بها أم كتمها، فإن حديث كل امرئ مع نفسه لا يقل أهمية عن حديثه مع سواه. والرواية التي بين أيدينا منسوجة من هذه الخواطر المتصلة، نسمع فيها نجوى الضمائر، وهمس الرغائب، وخفق القلوب.. إننا لا نرى العالم الخارجي إلا من خلال انطباعات الأبطال، وليس وصف الإطار فيها وصفا موضوعيا، وإنما هو وصف شخصي يتلاءم مع الحالة الشعورية التي يجتازها هذا أو ذاك. فالكاتبة تعنى فوق كل شيء بانفعالات الإنسان، وتقف عند العقبات التي تعترض تصرفه. ولذلك تظهرنا عليه وهو يتساءل في كل لحظة: ماذا عساه أن يفعل..

غير أن حرص الكاتبة على رصد هذه الأفكار المتلاحقة التي تجول في باطن أبطالها، كان وبالا عليها أحيانا. فهي تنقل إلينا نقلا أمينا نص ما يتردد في نفوسهم، سواء لديها أن يكون ذلك في جمل مفيدة أو في جمل مبتورة، سواء لديها الصورة الواضحة أو الصورة المبهمة. وهي –توخيا للأمانة أيضا– لا تتورع عن تسجيل ما قد يطرأ على أذهان الأشخاص أو ألسنتهم من ألفاظ صريحة، عامية أو مبتذلة. وفضلا عن تلك الشوائب الممجوجة، قد ينتهي هذا الأسلوب "الشفهي". المتفكك، إلى أن يضعف من أحكام الصياغة في نظر القارئ. وكثيرا ما يضيق به المترجم إلى العربية، لا سيما إذا اقتصر على استخدام الفصحى، وهي لغة جليلة، لغة كتابة، لم نتعود في أحاديثنا –مع أنفسنا أو مع الناس– أن نستخدمها إلا ممزوجة باللغة الدارجة ذات الجرس الأليف.

ومهما يكن من مآخذ، فإن أشخاص هذه القصة إذا تخاطبوا، تكلم كل منهم لغته الطبيعية التي تنم عنه وتكشف لنا دخيلته فـ"**روجيه**" رجل ضيق الأفق، وصاحبته الماجنة "**ميزي**" فتاة جاهلة، صغيرة الأحلام، بذيئة وتشبهها السيدة "**فان دن بيش**" -أم "**سيمون**"- رغم ثرائها وتانقها، فهي سيدة تغلب عليها خلاعة ماضيها، ولا تعرف مثل هذا الحياء الذي يسيطر على "**بول**" ويشقيها. وأما "**سيمون**"، فهو مثال الصبا والحياة، ولا يخلو حديثه من نفحات شعرية.

ذلك أن الشعر -على غير ما نتوقع- يحتل جانبا كبيرا من هذه القصة الواقعية القاتمة. وقد اجتلينا، فيما سبق، طرافة العنوان ووحيه الساحر. والفصول الأولى تفيض بشعر الخريف وشجونه. ما أبدع تلك الصفحة التي تروي نزهة "**بول**" مع "**سيمون**" بين أشجار غابة "**بولوني**" في بداية تعارفهما! فليس يخفى ما بين هذه الطبيعة الوانية وبين نفسية البطلة من توافق. إن الخريف بشمسه الشاحبة، وباصفرار أشجاره وتساقط أوراقها، هو الصورة الخارجية المعبرة عن حال هذه المرأة التي تودع شبابها وتنأى عن الحياة. وهنا "**رمزية**" قد انتهجتها الكاتبة وطبقتها تطبيقا مباشرا: فهذه الأوراق الصفراء التي بللها المطر ووطئتها أقدامهما فالتصق بعضها ببعض. إنما ترمز إليهما، وقد تابط ذلك الفتى المجهول ذراع هذه المرأة الكليلة التي أنست إليه، بل وترمز إلى جميع رفاق العمر الذين اتصلوا بـ"**بول**"، وها هي ذي تستعرض في ذاكرتها وجه زوجها "**مارك**"، ووجه شخص آخر كان قد أحبها، ثم وجه "**روجيه**".. ولعل أوضح مثل لهذه "**الرمزية**" السهلة هو المشهد الذي يفتتح الفصل الرابع، حيث نرى "**بول**"، وهي تنسق واجهة محل الأزياء، جاثية على ركبتيها أمام تمثال نصفي من الجص، فنحس بما ترسف فيه من ذل. إنها تمد ذراعيها وكأنها تبتهل لذلك الصنم المادي الذي اضطرها إلى عبادته مجتمع جائر، يمر رجاله بالواجهة ويستمتعون ببؤس المرأة وبحسنها المعروض..

وإذا ضاق بنا المقام عن إيراد أمثلة أخرى من شعر الرموز -لا شك أن القارئ سوف يفطن إليها في مواضعها- فإننا نذكر هنا مكان الموسيقى في القصة. وإنه لمكان ممتاز، يشمل أروع معاني الحياة. فقد يتاح التجاوب الروحي بين نفوس الناس من خلال نغمات يستمعون إليها، وقد يبلغ هذا التجاوب درجات عليا من الاتحاد يعرفها الصوفية، كما عرفها "**سيمون**" وهو يصغي إلى "**كونشرتو**" "**برامس**" بجوار "**بول**".

وجميل أن تتردد أصداء **الشعر في جنبات** رواية حسنة البناء. ولا أدل على فن التشويق من فاتحة كل فصل وخاتمته. والقارئ لن ينسى المنظر الأول، منظر "**بول**"، وهي تتامل في المرآة تجاعيد وجهها وتذعن للدهر، ولن ينسى المنظر الأخير، منظر "**بول**" تهتف من أعلى السلم إنها عجوز للفتى الذي ودعته.. ومن عوامل التشويق أيضا ألا تنبئنا المؤلفة بكل شيء، وإنما تدع لنا أن نستخلص الأمور، وأن نفصل الأقوال الموجزة، وأن نكمل ما نظنه ناقصا.

وتبدو براعة الصنعة في "تركيب" أجزاء القصة وطريقة عرضها. فقد عمدت "**ساجان**" في معظم الأحيان إلى "المقابلة" بين شخصية وشخصية، أو بين موقف وموقف: فمن الذي يخون صاحبه في عطلة نهاية الأسبوع؟ أهي "**بول**" التي خرجت مع "**سيمون**"، أم هو "**روجيه**" الذي فر مع "**ميزي**"؟ إن في تتالي الفصلين السادس والسابع، ما يبرز هذه الموازنة ويقوي من وقعها. وتلك ظاهرة غالبة على بناء الرواية، يمكن أن يلاحظها القارئ الذي يقارن بين الفصول ويبحث لكل منها عن عنوان. وليس التماس الكاتبة للتعارض بين المواقف أو الأشخاص من قبيل الحرص على التنويع فحسب، وإنما هو تعبير أيضا عما يعترك في النفس البشرية من متناقضات، وعما يشوب الحياة من غصص. ونكتفي هنا للتمثيل على ذلك بقمة النشوة التي يرقى إليها "**سيمون**" أثناء الحفلة الموسيقية، وحضيض الخيبة الذي يهوي إليه بعد انتهائها، إذ يشقى بصدود "**بول**".

ولم تهمل المؤلفة في البناء والتركيب مراعاة النسب بين عناصر الرواية، فمكان الصدارة يحتله الأبطال الثلاثة دائما، وأهمهم "**بول**". ويلوح إلى جوارهم، من حين إلى آخر، بعض تلك الشخصيات الثانوية التي يحلو لقلم ساخر أن يقدمها لنا في غمز خفيف صادر عن ذكاء مرهف. فلدينا بفضل قليل من الألفاظ أو الإشارات صورة السيدة "**فان دن بيش**"، أو صورة المحامي الكبير الأستاذ "**فلوري**"، أو صورة الرياضي يجدف في زورقه على بحيرة غابة "**بولوني**" رغم اشتداد البرد. وفي تجاور الكلمات المتنافرة لذع يظهر التناقض في صميم الشخصية، ويفضح عبثها واضطرابها الباطل.

بين أيدينا إذن عمل جيد الصناعة، لا يكاد ينال من إعجابنا بنواحي الإتقان فيه ما صادفنا من هنات هينات.

## نجاح أم نجاة؟

ويتميز الأدب الفرنسي في هذه الأيام بظاهرة جديدة، هي خضوعه لشرائع الاستغلال الاقتصادي. وقد أصبح نشر القصص بوجه خاص من المشروعات التجارية التي تتأثر بمقتضيات العرض والطلب. وانتقلت إلى النشاط الأدبي في "**باريس**" عدوى "**هوليوود**"، أي أساليب السينما الأمريكية وأخطارها... وما كان ذلك شأن الأدب في "**فرنسا**" حتى الأمس القريب. فمنذ القرن السادس عشر، أي منذ نشأة هذا الأدب الحديث إبان عصر النهضة، كان الانتاج الفكري يتجه إلى حيث تحدوه نزعات الكتاب والشعراء، الذين كانوا يلتقون أحيانا في منتديات المجتمع الراقي –"الصالونات"– فيذهبون مذهبا معينا، أو يتسامرون في بعض المقاهي، فتختمر في رؤوسهم ميول وترتسم مناهج، ويؤلفون على كل حال ما يشبه مدرسة من المدارس تتبع مبادئ فنية وتدعو إليها، وهكذا ظل الأدب الفرنسي أدبا يقوده الخاصة لا العامة. وأما عقب الحرب الأخيرة فقد اشتدت التيارات الاقتصادية، التي أغرت محترفي النشر والطباعة بالتكتل ما استطاعوا، في سبيل غزو الجمهور بأقدر الوسائل، وابتزاز أضخم الأرباح. وبطغيان هذه القوى المادية، فقدت تلك الجماعات الأدبية الصغيرة، وتلك الهيئات الثقافية المتواضعة، ما كانت تتمتع به من استقلال يضمن لها الأصالة والشخصية. وتركزت السلطة في أيدي أصحاب الدور الكبرى، التي يتحالف كل منها مع إحدى المجلات الأدبية الرائجة، إن لم تكن الدار نفسها هي التي تصدر واحدة من تلك المجلات تبث على صفحاتها الدعاية لكتبها. وثبات يقاس نجاح كتاب من الكتب بعدد مئات آلاف النسخ التي توزع منه. وتلك حظوة لا ينالها إلا الأديب الذي يتبناه سيد من سادة السوق..

ولهؤلاء السادة خطتان في التنافس على جماهير القراء! أن يتخيروا للنشر ما يرضي الأغلبية العظمى، أو أن يطلعوا على الملأ ببدعة مثيرة تغتصب الإعجاب والإقبال.

وكانت "**فرانسواز ساجان**" خير بدعة استحوذ بها الناشر "**جوليار**" على قراء فرنسا، عندما أخرج سنة ١٩٥٤ قصتها الأولى "مرحبا أيها الحزن"، وأذاع أن هذه القصة الخلابة التي تصور عالما يجافي الأخلاق الفاضلة، إنما كتبتها آنسة في الثامنة عشرة من عمرها! وسرعان ما **تلقفت ملايين** أمريكا هذه البدعة ودفعتها إلى آلات الطباعة وآلات السينما. وسطع بين ليلة وضحاها في سماء العالم كله نجم هذه الفتاة التي كانت نكرة مهملة، تتقدم لامتحان السنة الإعدادية بكلية الآداب فتفشل، وتندب حظها، وتهجر الجامعة!

ولقد فازت "**ساجان**" بهذا الفوز المبين لأنها حققت الخطتين في آن واحد: فهي من ناحية بدعة مثيرة بشبابها وجرأتها، وهي من ناحية أخرى تلبي ذوق الأغلبية العظمى بكتبها الخفيفة.

والحق أن القارئ العادي في فرنسا قد انصرف اليوم عن مطالعة الكتب الطويلة النفس التي راحت تشركه في ملحمة الإنسان المعاصر، وتبصره بنضاله الذي تشعب بين نظم المجتمع ومذاهب السياسة ومعاني الوجود. فمن فرط ما خاض الناس غمار المعارك والمناقشات، زهدوا أخيرا في ذلك الأدب الذي بات هدفه أن يعالج المشاكل الكبرى، وأن يتناول المسائل الفلسفية، وأن يتساءل عن مصير البشر من خلال أحاديث البطولة والمقاومة، وأحاديث الثورة على الأوضاع المعهودة والمغالطات المتوارثة، وأحاديث التضحية والحرية وما آلت إليه قيم الحياة. لقد ملوا مغامرات الإنسانية التي روعهم بمشاهدها "**مالرو**" و"**سانت أكسوبري**" و"**سارتر**" ومن سلكوا جادتهم. ضاقت صدور هذا الجيل بأهوال الحروب وإرهاق البطولات وذكريات المحن، ولاذ القوم بالرواية اليسيرة القصيرة، التي تقص لهم مغامرة خاصة لا عامة، فردية لا جماعية، نفسية عاطفية قبل كل شيء. وهذا هو اللون الذي راج منذ بضع سنوات، وغمر المكتبات، وتخصصت فيه "**فرانسواز ساجان**".

ولقد أدت هذه الظروف والعوامل التي تتحكم حاليا في سوق الأدب إلى إبراز أسماء كثير من النكرات، لم تلبث أقلامهم حتى خرست عقب نشر كتاب واحد جيد عجزوا عن إتباعه بمثله أو بخير منه. وبذلك أثبتوا أن نبوغهم لم يكن إلا وهما، وإنهم ليسوا بطبيعتهم أدباء ذوي فطرة أصيلة يستطيعون بها التغلب على مغريات النجاح المادية. فلا شك أن الكسب الغزير المفاجئ من شأنه أن يعزل الأديب عن وحيه، وموارد المال خليقة بأن تستميل الفنان المترفه إلى غير ينابيع الإنسانية الخالصة التي لابد له أن يستقي منها دائما. ترى هل نجت "**فرانسواز ساجان**" من شر هذا الرواج؟

إنها لم تصمت بعد كتابها الأول، ولم يأفل نجمها على أثر سطوع عارض. واليوم تقدم لنا روايتها الرابعة، وكأنها تقدم الدليل على نضج كبير، يتجلى في دقة التحليل النفسي وعمقه، وبراعة التصرف في الفن القصصي. ونحن الذين لا نقيس نجاح الأديبة الناشئة بعدد المتهافتين على رواياتها من قراء الكتب ورواد السينما، لسنا نغمطها حقها، بل نعترف لها بمزيد من الإجادة في "**هل تحبين برامس**".

إننا نذكر ما عليها وما لها، فنحيي قصتها هذه ونرحب بها، ولكن في شيء من الحذر، قد تقضي عليه قصتها التالية.

"**أ. ل.**"

# الفصل الأول

جلست "**بول**" تتامل وجهها في المرآة وتحصي الهزائم التي ألحقتها بتلك القسمات تسع وثلاثون سنة، هزيمة تلو هزيمة. ولم تستسلم لما يسيطر على النساء في مثل هذه الحال من جزع وحنق، وإنما راحت في هدوء سادر تلمس بشرتها الدافئة، وتمط ما بين أصبعيها أحيانا لتستبين خطوطا وتجاعيد كأنها لامرأة سواها، امرأة لا تكاد تعرفها... "**بول**" أخرى شديدة الحرص على جمالها، ولو أنها مازالت تهبط –رغم جهادها– من منزلة امرأة شابة إلى منزلة امرأة في منتصف العمر. لقد جلست أمام هذه المرآة لتقتل الوقت، فإذا بها تكشف –مما يوحي لها بالابتسام– أن الوقت هو الذي يقتلها بمروره، قتلا بطيئا، إذ يهاجم صورة تعلم أنها كانت –فيما مضى– محبوبة.

كانت تنتظر "**روجيه**" في تمام التاسعة مساء، وساعتها تشير الآن إلى السابعة. إن لديها من الوقت ما يتسع لأن تستلقي على سريرها، وتغمض عينيها، وتعمد إلى السكون والراحة، وفيم عساها تفكر؟ إن نهارها بأكمله لم يقدم لها أمرا يثير الشغف، ولم يضطرها إلى عناء يستوجب لها الآن أن تستريح، وإنما هو هذا المزاج من الخمول والقلق الذي كان يستولي عليها في صباها أثناء الأيام الممطرة، فيدفعها من غرفة إلى غرفة، ومن نافذة إلى نافذة.

ودخلت الحمام، وانحنت تمس الماء في الحوض، فذكرتها هذه الحركة بحركة مماثلة بدرت منها فيما قبل خمس عشرة سنة، حينما كانت في كنف زوجها "**مارك**"، وكانا يقضيان العطلة السنوية معا للمرة الثانية، وقد أحست هي إذ ذاك بأن أمرهما لن يستقيم طويلا. كانا في مركب "**مارك**" والشراع يخفق للريح خفقات قلب مضطرب لم يجد له مستقرا. كانت يومئذ في الخامسة والعشرين من عمرها وقد شعرت فجأة بفيض من السعادة يغمرها فترضى عن كل شيء في الحياة، وتقبل أوضاع الدنيا، وتستبشر في لمحة كومض البرق. ولكي تخفي وجهها المتهلل عن "**مارك**"، تنحني على الماء الشارد، تريد أن تغمس فيه أناملها. ثم يرسو المركب الشراعي الصغير، فيرميها "**مارك**" بإحدى نظراته تلك الجوفاء التي كان يتقن تسديدها، مما يحيل لذة السعادة في نفسها توا إلى لذع التهكم. أجل لقد ذاقت السعادة فيما بعد، مع آخرين أو عن طريق آخرين، ولكنها

لم تذقها قط على نحو كلي جامع مانع. وهكذا خطرت لها **تلك الذكرى**، كوعد لم تحققه الأيام.

*****

وأوشك "**روجيه**" أن يحضر، فلعلها تشرح له، أو تحاول أن تشرح له. سوف يقول: "نعم، بكل تأكيد في لهجة من الرضا الذي يغتنمه كلما اجتلى لونا من غش الحياة، وفي حماس حقيقي إذ يعلق على عبث الوجود، وعلى عنادهما في إطالة هذا العبث. ولكن شيئا فيه كان يعوض عن هذا كله: فهو ذو حيوية لا تنقطع، وشهوات متمكنة، يستمتع في قرارة نفسه بالوجود استمتاعا لا يقف إلا عندما يغلبه السبات. وإذ ذاك كان ينعس دفعة واحدة، ويده على قلبه، متنبها إلي حياته -نائما- تنبهه لها وهو يقظان. كلا، إنها لن تستطيع أن تشرح لـ"**روجيه**" أنها قد سئمت من أمرهما، وأنها تضيق بهذه الحرية التي سادت بينهما سيادة القانون، هذه الحرية التي ينتفع هو بها، على حين لا تخلف لها هي إلا الوحدة. إنها ما كانت تستطيع أن تطلعه على أنها تحس نفسها أحيانا كإحدى أولئك الإناث المتشبثات بتلابيب الرجال، فهو يكره ذلك النوع من النساء. وفجأة بدا لها مسكنها الخالي بغيضا، لا يروق ولا يجدي!

وفي الساعة التاسعة، دق "**روجيه**" الجرس.. وإذ فتحت له الباب ورأت ابتسامته وجسامته، أذعنت للقدر من جديد وقنعت بأنها تحبه. وأخذها بين ذراعيه قائلا:

– يا لأناقة ردائك!... إني مشتاق إليك.. هل أنت وحدك؟

– نعم. ادخل.

"هل أنت وحدك..؟" وماذا عساه أن يفعل لو أجابته: "لا، إنك تحضر في وقت غير مناسب"؟ ولكنها منذ ست سنين لم تجب هذا الجواب مطلقا. أما هو فلم يكن يفوته أن يسألها سؤاله، وأن يعتذر أحيانا عن إزعاجها، صادرا في ذلك عن خبث كانت تلومه على اصطناعه أكثر مما تلومه على الهجر والتقلب "فما كان ليستطيع أن يقر في ذهنه أنها وحيدة وشقية بسببه". وابتسمت له. وفتح زجاجة الشراب، وملأ كأسين، وجلس:

– تعالي بالقرب مني يا "**بول**". إلى أين تريدين أن نذهب للعشاء؟

**فجلست بالقرب منه. وكان هو ايضا بادي السام** وأخذ يدها فشد عليها وهو يقول:

– إني غارق في أمور معقدة. **شؤون العمل** غبية، والناس مغفلون ومرتخون إلى حد لا يمكن تصوره. آه! أتعلمين أن الحياة في الريف..

فراحت تضحك وتقول:

– لو هاجرت إلى الريف ما انقضى حنينك إلى ما ألفته من "**رصـــيف برسي**"، والمخازن وسيارات النقل، وإلى لياليك الطويلة في باريس..

وعندما سمع العبارة الأخيرة ابتسم، وتمطى، واستلقى إلى الوراء على الأريكة. وأما هي فلم تستدر، وما برحت تنظر إلى يده التي تركها على يدها، يده العريضة المفتوحة لقد كانت تعرف منه كل شيء، تعرف شعره الغزير المنخفض المنبت، وتعرف ما يلوح في عينيه الزرقاوين الجاحظتين قليلا من تعبير قاطع، وتعرف ثنية فمه. كانت تحفظه عن ظهر قلب!

قال:

– بمناسبة ذكر ليالي المجنونة، لقد التقطني رجال الشرطة أخيرا -ذات مساء- كما يلتقطون صبيا. كنت قد تعاركت مع شخص. الآن وقد نيفت على الأربعين.. في قسم البوليس.. أتتصورين؟

-ولماذا تعاركت؟

– لست أذكر. ولكنه كان يتوجع.

ونهض واثبا، كأنما قد أحيت قواه ذكرى هذا الحادث الذي دلل على شدة عضلاته. وقال:

– إني أعلم إلى أين سنذهب. إلى "**البييومنتيه**". وسوف نمضي بعد ذلك إلى حيث نرقص، إذا شئت أن تعتبريني من الراقصين.

قالت "**بول**":

– إنك تتمشى في الحلبة بدلا من أن ترقص.

– ليس هذا رأي الجميع.

– إذا كنت تعنى رأي أولئك الشقيات اللواتي تستعبدهن، فذلك شيء آخر.

وطفقا يضحكان، فقد كانت مغامرات "**روجيه**" الصغيرة موضوعا ممتازا للدعابة بينهما. واستندت "**بول**" إلى الجدار لحظة قبل أن تضع يدها على سياج السلم. لقد

فارقتها العزيمة.

وفي سيارة "**روجيه**" أدارت المذياع بيد شاردة. ولمحت برهة -في ضوء العدادات الشاحب- يدها تلك مستطيلة متجملة. كانت الشرايين منتشرة على سطحها، وقد جعلت تتسلق لغزو الأصابع، وتشابكت في رسم مختلط.. فقالت في نفسها: "تلك صورة حياتي"، ولكنها سرعان ما استدركت وأفاقت من وهمها. فلقد كانت تزاول مهنة تروقها، وكان لها ماض خال من الحسرات، وأصدقاء طيبون. وكانت لها فوق ذلك علاقة عاطفية مستديمة. واستدارت نحو "**روجيه**" تسأله:

– كم مرة أتيت هذه الحركة، حركة إدارة مذياع سيارتك وأنا ذاهبة للعشاء معك؟

– لا أدري.

وألقى عليها نظرة مواربة. فلقد ظل -بالرغم من طول عهده بها وتيقنه من حبها إياه -يستجيب في إرهاف غريب لتغيرات مزاجها، ومازال يترصد أطوارها، كما كان يفعل في أوائل أيامهما... وحبست هي شجونها بقوله: "هل تتذكر؟". وقررت أن تشدد مراقبة عواطفها في ذلك المساء لئلا تجنح إلى الأنين.

– هل تجدين الجهاز باليا؟

– لا، وإنما أنا التي أحس أحيانا أنني قد بليت بعض الشيء. ومد يده نحوها، فأخذتها بين راحتيها. وكان يقود السيارة مسرعا، والشوارع المعروفة تنطوي تحت العربة، وقد ائتلقت باريس بمطر الخريف. ومضى يضحك ويقول:

– إني أتساءل، لماذا أسوق بهذه السرعة؟ أخشى أن يكون ذلك رغبة مني في الظهور بمظهر الشباب!

ولم تجب، فلقد كان منذ عرفته يتكلف الشباب جادا ولا يعترف بتكلفه. كان يريد أن يقنعها بشبابه. أما وقد راح أخيرا يعترف لها بما يعمد إليه من تكلف، فقد أخافها باعترافه هذا. وتزايد خوفها من دور "**الأمينة**" الذي انزلقت إليه من فرط ما أبدت له من الفهم والحنان. لقد كان هو حياتها، وكان ينساها فتعينه على أن ينساها، بحيائها النبيل الرائع!

وتعشيا في هدوء، وهما يتحدثان عن المنغصات الاقتصادية العامة التي شملت "**روجيه**" ضمن المشتغلين بشؤون النقل، ثم روت له اثنتين أو ثلاثا من طريف نوادر المحلات التجارية التي تعمل في زخرفتها. لقد أصرت إحدى عميلات "**فان**" على أن تتولى "**بول**" تزيين مسكنها. **إنها أمريكية ذات ثراء**. فقال "**روجيه**":

– "**فان دن بيش**"؟ ذلك اسم يذكرني بشيء ما. آه! نعم..

ورفعت حاجبيها مصيخة لما يقول، وقد أذكى فيه الطرب هذا اللون من الذكريات.

– كنت أعرفها في زمان خال، أخشى أن يؤرخ بما قبل الحرب. وكان محلها المختار لدى "**فلورانس**".

– لقد تزوجت بعد ذلك، وطلقت، إلخ.

قال حالما:

– نعم، نعم، كانت تدعى.. أوه..

وأثار غيظها، فخطر لها فجأة أن تنشب شوكتها في كفه، ولكنها قالت:

– لا يعنيني اسمها. أنا أظن أنها أوتيت مالا لا بأس به وأنها لم تؤت أي ذوق، وهذا هو بالضبط ما يلزمني لأكسب عيشي.

– كم يبلغ عمرها الآن؟

– في الستين.

قالتها ببرود، فلما رأت ما ارتسم على ملامح "**روجيه**" انفجرت ضاحكة. ومال صاحبها فوق المائدة يحدق فيما أمامه ويقول:

– إني أستنكر قسوتك، فانت تتعمدين كل ما يحط من شأني. ومع ذلك فإني أحبك، وما كان يصح لي أن أحبك.

لقد كان يروق له أن يمثل دور الفريسة. فتنهدت وقالت:

– مهما يكن من شيء، سأذهب إليها غدا، في شارع "**كليبر**". إن حاجتي إلى النقود أصبحت ماسة.

وأضافت في حدة لما رأته يرفع يده:

– وحاجتك أيضا..

– فلنتحدث في موضوع آخر. هيا نرقص قليلا.

وفي ملهى ليلي اتخذا مجلسهما إلى مائدة صغيرة، بعيدا عن الحلبة، ولبثا صامتين يستعرضان الوجوه العابرة. وكانت يدها في يده، فأحست بغاية الأمن والطمأنينة، وعلمت أنها اعتادته إلى حد يسلبها قوة السعي إلى معرفة رجل سواه، واستمدت من

هذا اليقين سعادة كئيبة. ورقصا، فطوقها بذراع شديدة وهو **يخترق الحلبة** من أولها لآخرها دون توقيع أي نغم، مختالا راضيا عن نفسه. وكانت هي سعيدة جدا.

ثم عادا بالسيارة. وأمام باب الدار الخارجي نزل فاحتضنها، قائلا:

– أتركك الآن لتنامي. إلى غد يا حبيبتي.

وقبلها قبلة خفيفة وانصرف، وهي تلوح له بيدها. لقد دأب على أن يتركها لتنام تركا مطردا في الأيام الأخيرة... فوجدت مسكنها خاليا، ورتبت متاعها ترتيبا دقيقا قبل أن تجلس على سريرها والدمع في عينيها. عليها أن تبيت وحيدة هذه الليلة أيضا. وبدت لها حياتها المقبلة كسلسلة طويلة من الليالي الموحشة، تقضيها في فراش سوي لا تتغضن كسوته أبدا، وفي هدوء كالح كهدوء مرض طويل.

ورقدت فمدت يدها في حركة غريزية كما لو كان في السرير إلى جوارها خصر دافئ تلتمسه، وخفضت من تنفسها وكأنها ترفق بنوم شخص ما، رجل أو طفل –فهي لا يهمها من يكون هذا الشخص مادام محتاجا إليها، محتاجا إلى حرارتها لينام وليصحو– ولم يكن هناك من يحتاج إليها حقا، اللهم إلا "**روجيه**"، إذا حفزه حافز.. ولكنه لا يحتاج إليها حقا، لا يحتاج إليها على هذا النحو، عاطفيا، بل على نحو بدني، أدركته أحيانا، وباتت تجتر في وداعة ومرارة شجون وحدتها.

*****

وتـرك "**روجيـه**" سيارته أمام منزله، وتمشى راجلا فينة طويلة. لقد مضى يتنفس تنفسا عميقا، ويمد خطوته شيئا فشيئا. وكان يشعر بالارتياح، هذا الارتياح الذي يغمره كلما لقي "**بول**"، فهو لا يحب سواها. غير أنه أحس هذه الليلة –وهو يودعها– بمبلغ حزنها، ولم يدر ماذا يقول لها لقد سألته في تلعثم شيئا يعرفه حق المعرفة، شيئا لم يستطع قط أن يبذله لأي انسان. وربما كان من واجبه أن يبقى معها –فمازالت تلك خير وسيلة لبعث الطمأنينة في نفس امرأة– ولكنه كان متعطشا إلى سماع وقع خطواته على قارعة الطريق، وإلى أن يرقب تلك المدينة التي أدمن ارتيادها.. ولعله يفوز فيها بشيء من صيد الليل!

واتجه نحو الأضواء في أقصى الرصيف.

## الفصل الثاني

استيقظت مضعضعة الجسم،، متأخرة، وخرجت مهرولة. كان عليها أن تمر لدى تلك الأمريكية قبل أن تذهب إلى مكتبها.. وفي الساعة العاشرة، دخلت غرفة استقبال نصف خاوية، بشارع "**كليبر**"، وإذ وجدت أن ربة البيت لاتزال نائمة، أعادت في هدوء تجميل وجهها أمام المرآة. وفي المرآة رأت "**سيمون**" مقبلا. كان يرتدي "**روب دي شامبر**" فضفاضا، وكان أشعث الشعر مرموق الجمال. فخطر لها أنه ليس من طرازي، ولم تستدر قط، وإنما ابتسمت لنفسها لحظة. كان نحيفا جدا، أسمر جدا، ذا عينين صافيتين، مسرفا في الرقة إلى حد ما.

لم يبصرها في أول الأمر، واتجه نحو النافذة وهو يدندن. وسعلت، فالتفت نحوها وكأنه قد فوجئ متلبسا بجريرة، وظنت برهة أن هذا الفتى هو آخر نزوات السيدة "**فان دن بيش**"، بيد أنه قال لها:

– أسالك العفو، فإني لم أبصرك. إنني "**سيمون فان دن بيش**".

– لقد سألتني أمك أن أمر هذا الصباح لأتولى تنسيق المسكن. وأخشى أن أكون قد أيقظت جميع أهل البيت..

– على كل حال ينبغي أن يستيقظ النائم، عاجلا أو أجلا.

فاستشفت –وقد اعتراها الضيق– أنه لابد على نمط الفتيان الرقاق الذين لا يكفون عن الشكوى والتأذي. ودعاها إلى الجلوس، واتخذ مكانه مواجها لها، في كثير من الجد وهو يشد رداءه المنزلي حول جسمه.

كان –في أرجح الظن– متهيبا. وبدأت "**بـول**" تشعر بميل غامض نحوه.. ومهما يكن من شيء، فما كان يظهر عليه مطلقا أنه يعي قدر جماله البدني، وتلك صفة لم تكن تتوقعها ممن أوتي مثل وسامته.

– أظن أن المطر مازال مستمرا؟

فطفقت تضحك. تخيلت ما عسى أن يرتسم على ملامح "**روجيـه**" إذا رآهـا جالسة–بوجه كوجوه رجال الأعمال– تروع فتى غضا آية في الحسن، ملتفا في ردائه المنزلي، في الساعة العاشرة صباحا. وأجابت مرحة:

– نعم، نعم، مازال المطر مستمرا.

ورفع عينيه فقال:

– ماذا تريدين أن أقول لك؟.. إنني لا أعرفك.. لو كنت أعرفك من قبل لقلت لك إنني سعيد إذ أحظى منك بلقاء جديد..

فنظرت إليه، والدهشة تعقد لسانها.

– لماذا؟

– هكذا.

وأشاح برأسه. ووجدت أنه يتمادى في الغرابة شيئا فشيئا، قالت:

–إن هذا المسكن بالفعل في حاجة إلى بعض الأثاث. أين تجلسون إذا زاد عددكم على ثلاثة؟

– لا أدري. فأنا لا ألم بالبيت إلا نادرا. إني أعمل طيلة النهار، وعندما أعود، يدفعني التعب إلى النوم.

وتبددت جميع الأفكار التي كونتها "**بول**" عن هذا الفتى. فهو لا يستغل جماله البدني، بل يعمل طيلة اليوم. وكادت تسأله: "وماذا تعمل؟" ولكنها امتنعت. لم يكن مثل هذا الاستطلاع من سجاياها.

واستأنف "**سيمون**" حديثه:

– إنني محام تحت التمرين. وذلك عمل مرهق، يفرض على المرء أن ينام في منتصف الليل وينهض في الفجر..

ولاحظت "**بول**": "أنها الساعة العاشرة، فقال وهو يجر صوته جرا:

– لقد شنقوا أكبر موكل لي هذا الصباح.

فارتجفت. وظل يغض طرفه. قالت:

– رباه.. وهل مات؟

وانطلقا يضحكان معا. وقام فتناول سيجارة من فوق المدفأة.

– كلا، في الواقع إنني لا أعمل كثيرا، ولا أعمل ما يكفي. وأما أنت، وقد خرجت في العاشرة صباحا وتأهبت لتأثيث غرفة الاستقبال هذه الرهيبة، فإنك تملئينني إعجابا.

وكان يمشي من ناحية إلى أخرى، بادي الحماسة. فقالت "**بول**":

– هدئ من روعك.

كانت تحس بأنها منشرحة الصدر، مبتهجة. وبدأت تخشى قدوم أم "**سيمون**"..

وقال الفتى:

– إني ذاهب لأرتدي ملابسي، وأفرغ بعد دقيقة انتظريني.

*****

وأنفقت ساعة مع السيدة "**فان دن بيش**" التي كانت متعكرة المزاج بشكل واضح، ذات نفور وضراوة في الصباح. وبعد أن أعدت معها مشروعات معقدة، نزلت السلم طروبا وهي ترسم خططا مالية، وقد نسيت "**سيمون**" تمام النسيان. وفي الخارج كان المطر ينهمر دائما. وما كادت ترفع ذراعها لتنادي سيارة أجرة حتى وقفت أمامها عربة واطئة، فتح "**سيمون**" بابها قائلا:

– هل أستطيع أن أوصلك؟ إني ذاهب إلى المكتب.

ومن الواضح أنه كان ينتظر منذ ساعة، ولكن استخفاءه أثر في قلب "**بـــول**". وركبت بمشقة كبرى وقد انثنت شطرين، وابتسمت:

– إني أقصد شارع "**ماتنيون**".

– هل اتفقت مع أمي؟

– على خير وجه. عما قليل سوف يمكنك أن تستريح من متاعبك على أرائك وثيرة. أو لن أؤخرك كثيرا عن موعدك لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة، وانفسح من الوقت للشانقين ما يكفي لشنق جميع الناس.

فقال عابسا:

– أمامي كل الوقت.

واستأنفت حديثها متلطفة:

– لست أسخر منك، وإنما أنا رائقة المزاج جدا لأن هموما مالية ثقيلة كانت تحاصرني، وسوف تنقشع الآن بفضل أمك.

– طالبيها بأن تدفع مقدما، فهي شديدة البخل.

– ما هكذا يتحدث المرء عن والديه.

– إن عمري أكثر من اثنتي عشرة سنة!

– كم؟

– خمس وعشرون. وأنت؟

– تسع وثلاثون.

فبدر من شفتيه صفير حمل من الوقاحة ما أشرف بها لحظة على الغضب، ثم انفجرت ضاحكة.

– لماذا تضحكين؟

– لصفير الإعجاب هذا..

– إنه أكثر إعجابا مما تظنين.

ونظر إليها في حنان أفضى بها إلى الارتباك.

كانت ماسحات الزجاج توقع حركاتها بانتظام على واجهة السيارة في عبث مثالي، وكانت هي تتساءل كيف يمكنه أن يواصل القيادة. وأثناء عملية ركوبها، تمزق جوربها على إحدى ساقيها، وكانت تشعر بمرح عجيب في هذه العربة غير المريحة، مع هذا الفتى المجهول الذي تراه مفتونا بها، وذلك المطر الذي يتسرب من السقف ويتلف معطفها الفاخر. وانشأت تدندن.. واستعرضت في خاطرها أنها تسدد ما عليها من ضرائب، وترسل نفقة أمها، وتوفي ديونها للمتجر فكم يبقى لديها بعد ذلك؟.. لم تكن راغبة في الحساب. وكان "**سيمون**" يقود مسرعا، هو أيضا فانتقل فكرها إلى "**روجيه**"، وإلى الليلة التي قضتها.. وعادت إليها الكآبة.

– ألا تتفضلين بتناول الغداء معي، يوما؟

وكان "**سيمون**" يتكلم بسرعة، دون أن ينظر إليها. واعترتها لحظة من الذعر. فما كانت تعرفه، مما يوجب عليها أن تبذل جهدا في الحديث، وأن تسأله عن نفسه، وأن تنفذ إلى وجود جديد عليها. واصطرعت في نفسها الأفكار ثم قالت:

– لا أستطيع في هذه الأيام، من كثرة العمل.

– آه: طيب.

ولم يلح. وألقت عليه نظرة. كان قد كف عن السرعة، بل وبدا عليه أنه يقود محزونا. وتناولت سيجارة، فمد إليها قداحته. كانت قبضتاه كقبضتي غلام يافع، هزيلتين نحيلتين، تخرجان **بشكل مضحك من سترة** كثيفة الصوف. وخطر لها "أن امرءا في مثل هذه الوسامة لا يصح له أن يلبس ما يلبسه الصياد"، وساورتها الرغبة في أن تعنى به. لقد كان خير صورة للولد الذي يوحي لامرأة في مثل سنها بعواطف الأمومة. قالت:

– ها هنا.

ونزل دون أن ينطق بكلمة، وفتح لها الباب. وكان كالمغلوب على أمره، كاسف البال. فقالت:

– أكرر شكري.

– العفو.

وخطت ثلاث خطوات نحو بابها ثم التفتت. كان ينظر إليها، جامدا.

## الفصل الثالث

أنفق "**سيمون**" ربع ساعة في البحث عن مكان يؤوي إليه عربته، وانتهى به الأمر إلى أن تركها على بعد خمسمائة متر من مكتبه. كان يعمل لدى صديق من أصدقاء أمه، هو محام ذائع الصيت، دنيء إلى أقصى حد، ولكنه –لأسباب يخشى "**سيمون**" أن يفهمها– كان يتحمل سخافاته. وكانت تراود "**سيمون**" بين الحين والحين نزعة إلى مغايظة هذا الرجل، غير أن كسله كان يمنعه. وعندما هم بالمشي على إفريز الطريق، اصطدم بالإفريز، فأخذ يعرج في مشيته، في وداعة وإذعان، وراحت تلتفت إليه النساء السائرات، وهو يحس برأيهن فيه يقرع ظهره: "عاهة في مثل هذا الشباب وهذا الجمال، يا للخسارة!". ولم يكن مع ذلك يستمد من وسامته غرورا، بل عزاء: "ما كنت لأقوى أبدا على أن أظهر بين الناس دميما". وتخيل –على أثر هذه الفكرة– حياته زاهدا، تارة فنانا ملعونا يرسم، وتارة أخرى راعيا في أرض "**اللاند**".

ودخل المكتب يعرج، فألقت عليه العجوز "**أليس**" نظرة نصفها إشفاق ونصفها شك. لقد كانت تعرف أساليبه في اللهو، وتحتملها في تفضل منها مليء بالحسرات. فلو كان جادا، إلى جانب ما أوتي من براعة الحسن والمخيلة، لأصبح من كبار المحامين. وحياها تحية جليلة ثم جلس إلى منضدتها.

– لماذا تعرج؟

– إنه عرج هين. من قتل ومن انقتل في الليلة البارحة؟ ومتى يحين لي أن أترافع في جريمة رائعة لا تطاق؟

– لقد سئل عنك ثلاث مرات هذا الصباح. إنها الساعة الحادية عشرة والنصف الآن.

وكانت صيغة المبني للمجهول تعني الأستاذ الكبير، فصوب "**سيمون**" نظرة نحو بابه.

– لقد استيقظت متأخرا، ولكني قابلت شخصية ممتازة.

– امرأة؟

– نعم. تصوري وجها جميلا جدا، رقيقا جدا، مضنى بعض الشيء.. وحركات.. تعاني ألما لا يدريه جليسها..

– خير لك أن تنظر في ملف "جيو".

– سمعا.

– أهي متزوجة؟

فخرج "**سيمون**" فجاة من أحلامه.

– لست أدري.. ولكنها إذا كانت متزوجة، فإنها قد أساءت اختيار زوجها. كانت تنغص عليها هموم مالية ثم انزاحت عنها فاستخفها الطرب. إني لأحب النساء اللواتي يفرحهن المال.

فهزت كتفيها قائلة:

– إذن فأنت تحبهن جميعا.

– تقريبا. ماعدا ذوات الشباب الفج.

وانغمر في الملف الموضوع أمامه. وانفتح الباب، وأطل رأس الأستاذ "**فلوري**":

– يا أستاذ "**فان دن بيش**".. دقيقة واحدة.

وتبادل "**سيمون**" والسكرتيرة نظرة، ثم مضى إلى ذلك المكتب الإنجليزي الطراز الذي كان يكرهه لفرط أناقته.

– أتعرف كم الساعة الآن؟

وانطلق الأستاذ "**فلوري**" فاطنب في تقريظ المحافظة على المواعيد، والجد في العمل، وختم خطابه بامتداح صبره شخصيا وصبر السيدة "**فان دن بيش**". وكان "**سيمون**" ينظر من النافذة. خيل إليه أنه يحيا من جديد مشهدا قديما ممجوجا، وأنه قد عاش في هذا المكتب الإنجليزي يسمع تلك الألفاظ بعينها دائما، كما خيل إليه أن شيئا يضيق من حوله فيكتم أنفاسه ويزهق روحه. وخطر له على حين غرة: "ماذا فعلت في حياتي منذ خمس وعشرين سنة، اللهم إلا انتقالي من مدرس إلى مدرس، ينهرني هذا وينهرني ذاك، وأتشرف بأن أكون محل الانتهار دائما؟ وكانت تلك هي المرة الأولى التي يصوغ فيها ذلك السؤال بمثل هذه الشدة. ورفع صوته رفعا آليا:

– ماذا فعلت؟

– ماذا تقول؟ إنك لم تفعل شيئا يا صديقي العزيز، وهنا موطن الداء، وهو أنك لا تفعل شيئا.

وأردف "**سيمون**":

– بل واظن كذلك انني لم أحب أحدا قط.

فانفجر الأستاذ "**فلوري**":

– أنا لا أطلب منك أن تقع في غرامي أو في غرام الشيخة "**أليس**". انا أطلب منك أن تعمل. إن لصبري حدوده.

ورد عليه "**سيمون**" في داخل نفسه:

– ولكل شيء حدوده.

كان يحس بانه قد هام في حلم، وتوغل بين معان تجانب الصواب، وكانه لم ينم منذ عشرة أيام، يمضه الطوى ويفترسه العطش.

– أتسخر مني؟

فاجاب "**سيمون**":

– لا. اعذرني، وسوف أراعي العمل.

وخرج بخطوات إلى الوراء، وجلس إلى مكتبه، واضعا رأسه بين يديه، تحت نظرات السيدة "**أليس**" المشدوهة، وظل يفكر: "ماذا دهاني؟ ما الذي حل بي؟". وحاول أن يتذكر: أيام الطفولة في انجلترا، وجامعات، وحبا مشبوبا –أجل، وهو في الخامسة عشرة– أشعلته في قلبه إحدى صديقات أمه، ولم تزل تغريه حتى أخرجته من سذاجته في تمام أسبوع واحد!... ثم حياة سهلة، ورفاقا مرحين، وبغايا، وطرقات مشمسة.. دار هذا كله في ذاكرته دون أن يستوقفه شيء منه. وربما لم يكن له في هذا كله أي شيء، بيد أن له من العمر خمسا وعشرين سنة.

قالت السيدة "**أليس**":

– لا تزعج نفسك. سوف ينسى غضبه، كما تعرف.

فلم يجب. وكان يخطط بقلم شارد على صفحة نشافة. فاستانفت السيدة "**أليس**" في قلق:

– أفتفكر في صويحبتك؟

ثم استدركت فاضافت:

– أم تفكر في ملف "**جيو**"؟

– ليس لي صويحبة.

– وتلك التي قابلتها هذا الصباح، قلت لي ما اسمها؟

– لا أعرف.

وحقا لم يكن يعرف منها حتى اسمها... كانت هناك في باريس، شخصية لا يعرف عنها شيئا، وكان ذلك في حد ذاته شيئا ساحرا ما كان ليطرق خاطره.. شخصية يستطيع أن يتخيلها كما يهوى أن يتخيلها أياما كاملة.

*****

وكان "**روجيه**" مستلقيا على الأريكة في غرفة الاستقبال، يدخن متانيا، وقد هدمه التعب. كان قد أنفق نهاره على رصيف الواردات يراقب ما له من عربات النقل العائدة، فبلله المطر، واضطر فوق ذلك إلى أن يرحل صوب مدينة "**ليل**" –في ساعة الغداء– ليعاين في الطريق حادثا سوف يكلفه ما يزيد على مائة ألف فرنك.. وكانت "**بول**" ترفع ما بقي على المائدة بعد تناول العشاء. قال:

– وما أخبار "**تيريزا**" تلك؟

– أي "**تيريزا**"؟

– السيدة "**فان دن بيش**". لقد تذكرت اسمها هذا الصباح، لماذا؟ الله أعلم.

قالت "**بول**":

– لقد اتفقنا.، عهدت لي بكل شيء. ولم أنبئك بالأمر لأني أرى تزاحم المتاعب عليك..

– أتظنين أن انقضاء متاعبك مما يثقل همومي؟

– كلا، وإنما ظننت ببساطة أن..

– أو تحسبينني شديد الأثرة يا "**بول**"؟

وكان قد جلس على الأريكة، يحدق فيها بعينيه الزرقاوين، بادي الهياج. فأمسى من الواجب عليها أن تهدئ ثائرته، وأن تشرح له أنه أفضل الرجال –وهذا صحيح من وجهة نظر معينة– وأنه يسعدها سعادة جزيلة. وجلست بالقرب منه.

– ما أنت بذي أثرة، وإنما أنت رجل تستغرقك أعمالك، ومن الطبيعي أن تتحدث عنها..

– لا . إنني أعني سؤالي بالنسبة إليك . أتجدينني شديد الاثرة؟

ورأى أنه قد فكر في هذا الموضوع طيلة النهار، ولعله بدا هذا التفكير منذ تركها في الليلة البارحة أمام بابها وهي مضطربة العينين. وأما هي فترددت: لم يكن قد سألها على الإطلاق هذا السؤال من قبل، فلعل الوقت قد حان لأن تناقش الأمر معه. ولكنها كانت تحس بأنها رائقة المزاج، واثقة بنفسها، على حين يبدو صاحبها ضجرا ضيق الصدر فتراجعت.

– لا يا "**روجيه**". صحيح أن هناك لحظات أشعر فيها بشيء من الوحدة، وبأن شبابي يفارقني، وبأني لا أستطيع أن أتبعك. ولكنني سعيدة.

– أسعيدة أنت؟

– نعم.

فاستأنف تمدده على الأريكة. لقد قالت: "إني سعيدة"، فلم يكن على ذلك السؤال الصغير المقلق الذي لاحقه طول النهار إلا أن ينقشع. وهذا ما كان يتمناه.

– أتعلمين، أن جميع هذه الأمور الصغيرة التي تعرض لي.. إنك تعرفين قدرها.

– نعم، نعم.

وكانت تنظر إليه، وهو مغمض عينيه، فتجده صبيانيا، وقد استلقى على هذه الأريكة بقامته الطويلة وكتلته الثقيلة يسألها مثل أسئلة الأطفال: "هل أنت سعيدة؟". ومد يده نحوها، فتناولتها ودنت منه، وظل هو مغمض العينين، يقول:

– "**بول**"، "**بول**".. لولاك، إنك تعرفين يا "**بول**"..

– نعم.

وانحنت فقبلت وجنته. كان قد استغرق في النوم.

ورفع في رفق يده من بين يدي "**بول**"، ووضعها على قلبه. وفتحت هي كتابا.

وبعد ساعة استيقظ تملؤه الحركة، واستطلع ساعته فقرر أن الوقت وقت الخروج للرقص والشرب، لنسيان جميع سيارات النقل تلك اللعينة. وكانت "**بول**" تغالب النعاس، ولكن ليس هناك من الحجج ما تستطيع مقاومة نزوة من نزوات "**روجيه**".

قادها إلى مكان جديد في طابق تحت الأرض بشارع "**سان جرمان**"، نسق على شكل حديقة من حدائق الميادين، تغمرها الظلال، ويصب فيها الحاكي فيضا صاخبا من موسيقى أمريكا الجنوبية.

قالت "**بول**" وهي تجلس:

– إني لا اقوى على الخروج كل ليلة. سوف أبدو غدا عجوزا في سن المائة. بل وعندما قمت صباح اليوم.. وإذ ذاك فقط تذكرت "**سيمون**". كانت قد نسيته تماما. فالتفتت إلى "**روجيه**":

– تصور أنني في هذا الصباح..

ولكنها سكتت. كان "**سيمون**" واقفا أمامها. وقال:

– مساء الخير.

فقدمت "**بول**" كلا منهما للآخر:

– السيد "**فيرتيت**" السيد "**فان دن بيش**".

قال "**سيمون**":

– لقد كنت أبحث عنك وهانذا أجدك. ذلك فأل حسن ودون أن ينتظر دعوة ما، هوى على كرسي صغير. واشرأب "**روجيه**" ساخطا. وأما "**سيمون**" فاستأنف نجواه:

– مضيت أبحث عنك في كل مكان. وانتهيت إلى أن أسائل نفسي هل أنا رأيتك في حلم!

وكانت عيناه تلمعان، وقد وضع يده على ذراع "**بول**" التي أذهلتها الدهشة.

قال "**روجيه**":

– أظن أن لديك مائدة أخرى.

بينما راح "**سيمون**" يسأل "**بول**":

– هل أنت متزوجة؟ لقد أبيت على نفسي أن أصدق هذا الخاطر.

فقال "**روجيه**" بصوت مرتفع:

– إنه يغيظني. سأعيده إلى مكانه.

ونظر إليه "**سيمون**"، ثم اتكأ بمرفقيه على المائدة ورأسه بين كفيه، وأنشأ يقول:

– إنك على حق يا سيدي، وأنا أسألك المغفرة. أظن إنني شربت قليلا. ولكنني اكتشفت صباح اليوم أني لم أفعل في حياتي شيئا قط، لا شيء على الإطلاق.

– فافعل إذن شيئا لبقا، وانصرف!

قالت "**بول**" في وداعة:

– دعه، إنه شقي. لقد حدث لنا جميعا في يوم من الأيام **ان اسرفنا في** الشراب. إنه ابن التي تدعوها.. أوه "**تيريزا**".

فقال "**روجيه**" ماخوذا:

– ابن؟.. ذلك أنكى ما في الأمر.

وانحنى إلى الأمام حيث كان "**سيمون**" قد حط رأسه على ذراعيه، وقال "**روجيه**":

– استيقظ. سوف نشرب كأسا معا وتشرح لنا شجونك. إني ذاهب لآتي بالكؤوس، فما أبطأ الخدمة هنا!

كانت خصلة من شعره قد تدلت على عينيه، وأضواء الشموع تنحت وجهه. كان بديعا. وإلى المائدة المجاورة أخذت امرأتان تتأملان صورته، في متعة ونعيم.

قال "**سيمون**":

– إني أستغفرك. ألا ويحي: أقضي حياتي في الاعتذار منذ الصباح. أصارحك القول، ما أرى إلا أنني صعلوك.

وعاد "**روجيه**" حاملا ثلاث كؤوس، وتمتم ما معناه أن الجميع معرضون للوقوع في مثل هذا الحرج. واجترع "**سيمون**" كأسه جرعة واحدة، ولزم الصمت والحذر. كان جالسا إلى جانبهما لا يتحرك. ونظر إليهما يرقصان، وسمعهما يتحدثان، دون أن ينبس، حتى نسيا وجوده شيئا فشيئا. غير أن "**بول**" كانت إذا استدارت من وقت إلى آخر، رأته في كنفها كطفل عاقل، ولم تستطع أن تكتم ضحكها.

وحينما نهضا لينصرفا، هب واقفا في أدب، ثم انهار. فقررا أن يوصلاه إلى بيته. وفي سيارة "**روجيه**"، نام ورأسه يرتج على كتف "**بول**". كان شعره حريريا وكان تنفسه هادئا. ووضعت "**بول**" يدها على جبهته لئلا يصطدم بالزجاج، ثم اعتمد الرأس على يدها ثقيلا مستسلما. وإذ بلغوا شارع "**كليبر**"، نزل "**روجيه**" فدار حول العربة وفتح الباب... وهمست له "**بول**":

– ترفق!

وفاجأه تعبيرها الحاني، ولكنه لم يقل شيئا، وأخرج "**سيمون**" من العربة. وفي تلك الليلة، صعد مع "**بول**" عندما أعادها إلى مسكنها، وبات في سباته يضمها إليه ضما حال بينها وبين النوم وقتا طويلا.

## الفصل الرابع

في ظهر اليوم التالي –وكانت قد انثنت على ركبتيها داخل واجهة محل الأزياء، وهي تحاول أن تقنع الخياط بأن تمثالا نصفيا من "الجبس" ليس بدعة خلابة تبرز جمال قبعة يبغي تعليقها عليه وصل "**سيمون**". وكان يختلس النظر إليها منذ خمس دقائق، مختبئا وراء "كشك"، وقلبه يخفق– دون أن يدري أيخفق لرؤيتها، أم لاستخفائه!.. لقد كان يحب الاستخفاء دائما، وكان يستخدم أحيانا يده اليسرى فتظل تتلوى كأن يده اليمنى قد تقلصت على مسدس أو اكتست بالدماميل، مما كان يثير ذعر الناس في المتاجر، لابد أنه كان ممن تدخل أعراضهم في اختصاص علماء التحليل النفسي، أو هكذا على الأقل كانت تزعم أمه.

وبينما كان ينظر إلى "**بول**" جاثية في داخل واجهة المتجر، تمنى لو أنه لم يقابلها مطلقا، ولم يرها على هذه الصورة من خلال الزجاج، إذن لوفر على نفسه هوان الصد الذي أقبل يسعى إليه للمرة الثانية، ماذا عساه قد قال في الليلة البارحة؟ لقد سلك سلوك ولد مغفل، فسكر سكرا وخيما، وتحدث عن دخائل نفسه، وذلك أقبح التبذل!... وتوارى خلف "الكشك"، وهم بالانصراف، ثم ألقى عليها نظرة أخيرة، وإذا برغبة تحثه على أن يعبر الشارع، وأن ينتزع منها القبعة، تلك القبعة القاسية بدبابيسها الطويلة الناشبة فيها، وأن ينتزعها هي من عملها، من تلك الحياة التي تفرض عليها أن تنهض في الفجر لكي تحضر فتجثو على ركبتيها في واجهة متجر، تحت أنظار المارة!... وكان المشاة في الشارع يقفون، ويتطلعون إليها، وكان بينهم ولا شك من يشتهيها، في وضعها ذاك، جاثية كما هي، مادة ذراعيها نحو التمثال النصفي المجبول من الجص..

واشتد شوقه إليها فعبر الشارع. وتخيلها بالفعل وقد سرى بها الندم من وقع نظراته، والإعياء، وكأنها تلتفت نحوه لفتة الملهوف إلى المفر.. ولكنها اقتصرت على تحيته بابتسامة صغيرة جافة!

– هل ترغب في شراء قبعة لأحد؟

فتمتم.. غير أن الخياط راح يخاطبه في عنف، لا يخلو مع ذلك من تدلل:

– سيدي العزيز، إنك تنتظر "**بـول**"، هذا شيء جميل **تفضل بالجلوس** هناك ودعنا ننجز أمرنا.

فقالت "**بول**" وهي تزحزح شمعدانا:

– إنه لا ينتظرني.

قال "**سيمون**":

– لو كان لي أن أتصرف لنحيته إلى اليسار، ولدفعته قليلا إلى الوراء. فذلك أكثر إيحاء.

فنظرت إليه برهة في غضب. أما هو فابتسم لها. لقد تبدل الدور الذي يؤديه، وغدا دور الفتى الذي يمضي لاصطحاب عشيقته من مكان أنيق.. الفتى ذي الذوق المرهف. وأعجب الخياط بفتواه –وكان رجلا من عشاق الذكور– إعجابا وإن لم يحفل به "**سيمون**"، إلا أنه أصبح مادة للفكاهة بين "**بول**" وبينه. فقد قال الخياط:

– إنه على حق: ذلك أكثر إيحاء.

فقالت "**بول**" في برود:

– إيحاء بماذا؟

ونظرا إليها.

– بلا شيء. بلا شيء على الإطلاق.

وطفق يضحك وحده، وكان ضحكه من المرح بحيث لوت "**بول**" رأسها لئلا تشترك فيه. واغتاظ الخياط فابتعد. وبينما هي تتراجع قليلا عن زجاج الواجهة لتجتلي المنظر العام، صدمت كتف "**سيمون**" –الذي كان قد اقترب– فأسندها من مرفقها على المنصة. وقال في صوت حالم:

– انظري، إن الشمس مشرقة.

ومن خلال الزجاج المغرورق بالماء، كانت الشمس تنفذ إليهما، فتبث فيهما هذا الدفء المفاجئ، المليء بحسرات يجيش بها دبيب الخريف. وانغمرت "**بول**" في تلك الأشعة اللاذعة، وقالت:

– نعم، إن الشمس مشرقة.

ولبثا لحظة جامدين، فهي مازالت فوق المنصة، أعلى منه، تدير له ظهرها وتعتمد مع ذلك عليه. ثم تخلصت منه، قائلة:

– كان خيرا لك أن تسعى إلى النوم.

– إني جائع.

– اذهب إذن لتتناول غداءك.

– ألا تودين أن تأتي معي؟

فترددت. كان "**روجيه**" قد أنباها بأن عمله سوف يستبقيه فلا يستطيع لقاءها، ولذلك رأت أن تقصر طعامها على شطيرة تأكلها في الحان المقابل ثم تفرغ لشراء بعض لوازمها. ولكن دعاء الشمس هذا المفاجئ قد خلع على أرضيات المقاهي وممرات المحلات التجارية الكبرى صورة كريهة. وكانت تتوق إلى العشب –ولو كان عشبا مصفرا مسته يد الخريف– فقالت:

– إني أتوق إلي العشب.

– هيا بنا إليه. إن معي عربتي القديمة، والريف قريب..

وبدرت منها اشارة بالنهي. الريف، في صحبة هذا الفتى الصغير المجهول، والذي قد يكون مملا.. ساعتان في حديث خاص..؟

فأضاف ليطمئنها:

– أو غـابة "**بـولونـي**". وهناك تستطيعين إذا أصابك الملل أن تستدعي سيارة من سيارات الأجرة بالتليفون.

– إنك تفكر في كل شيء.

– ينبغي أن أصارحك بأنني كنت بالغ الخجل عندما استيقظت. وقد حضرت لأعتذر.

فقالت "**بول**" في لطف:

– هذا النوع من الحوادث يقع للجميع.

وارتدت معطفها.. كانت الأناقة فنا تجيده إلى درجة الإبداع. وفتح لها "**سيمون**" باب العربة، فجلست فيها دون أن تتذكر متى قالت: "نعم" جوابا على الدعوة إلي هذا الغداء الغريب. وانخدش جوربها أثناء ركوبها، فجأرت لحظة من الغضب، وقالت:

– أظن أن صويحباتك يلبسن "البنطلونات".

قال:

– لم يعد لي...

– صويحبات؟

– نعم.

– وكيف كان ذلك؟

– لست أدري.

وكانت نفسها تنازعها إلى السخرية منه. فهذا المزاج من التهيب والجرأة، ومن الرزانة –التي تكاد تثير الضحك أحيانا –والتهكم، كان يطربها. وإذ قال "لست أدري" في صوت شبه خفيض، يحوطه الغموض، هزت رأسها:

– حاول أن تتذكر.. متى بدأ هذا الصدود الإجماعي عنك؟

– كنت أنا البادئ في واقع الأمر، لو تعلمين! كنت مع فتاة لطيفة غير أنها مسرفة في الخيال. لقد كانت مثل صورة للشباب، بالنسبة لمن بلغوا سن الأربعين.

وسجلت في نفسها هذه الإصابة.

– وأي صورة للشباب يتمثلها الانسان في سن الأربعين؟

– الحق.. كانت عليها سمات "**البلية**"، تقود سيارتها باقصى سرعة، وهي مطبقة فكيها، وتدخن سجائر "**الجولواز**" الحامية منذ أن تفيق من نومها.. ثم، كانت تقول لي إن الحب ليس إلا تلامس بشرتين!

وطفقت "**بول**" تضحك.

– وبعد ذلك؟

– عندما مضيت عنها، بكت.. بالرغم من أسلوبها في الحياة.

وأضاف في حدة:

– ولست بهذا أفتخر. فإني أستنكر المآسي.

وكانت تفوح في الغابة رائحة العشب البليل، والخشب الذي دب إليه العطن، ونسائم الخريف. ووقف أمام مطعم صغير، فدار مهرولا حول العربة ليفتح لصاحبته الباب وبذلت "**بول**" مجهودا عضليا كبيرا لكي تنزل في رشاقة وملأها الإحساس بأنها قد انطلقت إلى مغامرة من مغامرات الفرار.

وطلب "**سيمون**" على الفور "**كوكتيل**"، فنظرت إليه "**بول**" في قسوة، وقالت تؤنبه:

– بعد ليلتك الماضية، ما كان ينبغي أن تشرب سوى الماء.

– أشعر بانني على ما يرام، ثم إن الشجاعة تعوزني، ينبغي إذن أن أتدبر الأمر بحيث لا تضايقك صحبتي إلى أكثر من حد معلوم، ولذلك أتزود بما يشحذ قواي.

وكان المطعم خاليا على وجه التقريب، والخادم عابسا ساخطا. ولزم "**سيمون**" الصمت، واتصل صمته بعد أن طلبا ما يريدان من شراب وطعام. وبالرغم من ذلك، لم يخطر لـ"**بول**" خاطر الملل، فقد بدا لها أن هذا صمت متعمد، وأن "**سيمون**" يحتفظ ببرنامج للحديث أثناء تناول الغداء. لابد أن يكون هذا الفتى مليئا بالأفكار الخفية دائما، شأنه شأن القط.

وفجأة قال في تدلل، يحاكي الخياط:

– إنه أكثر إيحاء..

ولم تكن "**بول**" تتوقع ذلك، فانفجرت ضاحكة.

– أتجيد المحاكاة بمثل هذه الإجادة دائما؟

– لا بأس. وللأسف، ليس لنا كثير من المعارف المشتركة. ولو حاكيت أمي، لرميتني بالعقوق. ومع ذلك فلأفعل: "ألا تظنين أن إشعاعا من الحرير اللامع، هنا نحو اليمين قليلا، يبعث شيئا من الأنس، ومن الحرارة؟"

– إنك ولد عاق، ولكنك تتقن التمثيل.

– وأما صاحبك في سهرة البارحة، فلم يتيسر لي أن أراه مليا. ثم إنه لابد أن يكون، فوق ذلك، غير قابل للتقليد، وسرت لحظة من الصمت. وابتسمت "**بول**".

– إنه كذلك.

– وأما أنا، فلست إلا نسخة باهتة منقولة عن شرذمة من صغار الفتيان الذين أفسدهم التدليل، وانحشروا في صفوف المهن الحرة بفضل ذويهم، وراحوا يلتسمون تزجية لفراغهم. إنك لتخسرين في المقايضة إذا استبدلت بصحبته صحبتي.. أعني ساعة الغداء.

وأفاقت "**بول**" إذ صدمتها نبرة الهجوم في صوته. قالت:

– إن "**روجيه**" مشغول. ولولا ذلك، ما كنت هنا الآن.

فقال في نغمة حزينة بلبلت خاطرها:

– إني لأعلم ذلك حق العلم.

وأثناء ما بقي لهما من فسحة الغداء، تحدث كل منهما عن العمل الذي يزاوله. ومثل "**سيمون**" قصة إحدى الجرائم العاطفية تمثيلا كاملا. وفي موقف ما، هب كالمحامي الذي انطلق يترافع، وصوب أصبعه نحو "**بول**" التي استرسلت في الضحك، وأنشأ يقول:

– وأما أنت، فإني أتهمك بأنك نقضت واجبك الإنساني... باسم هذا الفقيد، أتهمك بأنك تركت الحب يولي عنك، وأنك أهملت حقك في السعادة، وبأنك عشت تتذرعين بالحلول الزائفة، وتتعللين بتوافه الأمور، وتلوذين بالخنوع والإذعان. إنك لجديرة بأن تحكم عليك المحكمة بالإعدام، ولكنها ستحكم عليك بالوحدة.

وتوقف، فشرب كأسه المترعة بالشراب، جرعة واحدة. بينما ظلت "**بول**" بلا حراك. ثم قالت وهي تبتسم:

– كم هو رهيب هذا الحكم!

– إنه شر عقوبة. لا أرى أكثر شرا منه، ولا أرى إلى الفرار منه سبيلا. وليس يروعني شيء أكثر مما يروعني هذا الحكم. على أن جميع الناس يشعرون مثلي بهذا الخوف، ولكن لا يبوح واحد منهم بذلك الشعور. أما أنا، فتستلكني الرغبة في أن أصرخ أحيانا: إني خائف، إني خائف، أحبوني!

فقالت، وكأنها تتكلم بغير إرادتها:

– وأنا أيضا.

وفي لمحة، طافت بها صورة طرف الجدار المقابل لسريرها، في غرفة نومها، وما ارتسم في ذلك الحيز من ستائر مسدلة، ولوحة قدم بها العهد، ومنضدة صغيرة إلى اليسار.. ذلك المشهد الذي كانت تنظر إليه كل يوم، صباح مساء، وربما لن تبرح تنظر إليه بعد فوات عشر سنين أخرى.. وهي إذ ذاك أشد وحدة منها اليوم!.. و"**روجيه**"؟ ماذا كان يفعل "**روجيه**"؟.. لا حق له، ولا حق لأي إنسان في أن يحكم عليها بأن تشيخ هكذا.. لا حق لأي إنسان على الإطلاق، حتى ولا هي نفسها..!

وقال "**سيمون**" في وداعة:

– لابد أنك تجدينني أشجى أنينا، وأدعى للسخرية، وأهون مني ليلة أمس. أم لعلك تظنين أنني أؤدي أمامك حركات فتى هازل يريد أن يستدر عطفك؟

وكان جالسا قبالتها، وفي عينيه الصافيتين كدر خفيف، ووجهه الرقيق الأملس دانيا إلى حد يزين لها أن تضع عليه يدها. ولكنها قالت:

– لا، لا، وإنما كنت أرى... كنت أرى أيضا أنك لاتزال على شيء من حداثة السن بالنسبة لهذا. وإنك تلقى من الحب والتدليل ما يزيد على الحاجة.

– لكي يوجد ذلك، ينبغي أن يوجد اثنان. تعالي، سوف نتمشى بضع خطوات في الخارج، فالجو بديع جدا الآن.

وخرجا معا. وتأبط ذراعها، وسارا قليلا، دون أن ينطقا بكلمة. وأخذ سحر الخريف يصعد إلي قلب "**بول**"، في فيض عذب لذيذ. وكانت أوراق الشجر المبللة، المحمرة، وقد وطئتها الأقدام فتلاصق بعضها ببعض، تختلط بالتربة اختلاطا بطيئا. وأحست بنوع من الحنان لهذا الطيف الصامت الذي يتأبط ذراعها. هذا الفتي المجهول قد غدا رفيقا لمدة بضع دقائق، شخصا تمشي معه في ممر خال، في ختام سنة من السنين، ولقد كانت دائما تشعر بالحنان نحو رفاقها، سواء رفاق النزهة أو رفاق الحياة، بعاطفة ملؤها الشكر على كونهم أكبر منها، وكونهم مختلفين عنها أشد الاختلاف، قريبين منها أشد القرب في آن واحد. ولاح لها من جديد وجه "**مارك**"، زوجها الذي فارقته وفارقت معه وجه "**روجيه**"، وهو الوجه الوحيد الذي بعثته ذاكرتها حيا متبدل التعبير. أولئك ثلاثة رفاق في حياة امرأة، ثلاثة رفاق طيبون. ألم يكن ما أتيح لها حتى ذلك المدى شيئا عظيما؟

هناك سألها "**سيمون**":

– هل أنت حزينة؟

فالتفتت نحوه، وابتسمت دون أن تجيب. واستأنفا المشي.

ثم قال "**سيمون**" في صوت مكتوم:

– بودي، بودي أن... إنما أنا لا أعرفك، ولكن بودي أن أعتقد أنك سعيدة، فإني أشعر نحوك بالإعجاب.

ولم تعد تصغي إليه. فقد تقدم الوقت، ولعل "**روجيه**" قد **خاطبها لتتناول معه قهوة** ما بعد الغداء، ففوتت هكذا الفرصة. كان قد أنبأها بعزمه على الرحيل يوم السبت لقضاء عطلة آخر الأسبوع في الريف، أفتراها تستطيع أن تتخلص من عملها قبل ذلك الحين؟ أو لايزال راغبا في القيام بتلك الرحلة؟ أم أنها حيال وعد من الوعود التي كان الحب، أثناء الليل، ينتزعها منه انتزاعا؟ فلقد كان في أحضانها لا يتصور أن يواجه الحياة بدونها، وإنما يبدو له حبهما من زخرة الوضوح بحيث يكفه عن التخبط. على أنها منذ يجتاز الباب، منذ يستنشق في الشارع نسائم استقلاله العاتية الشذا، كانت تفقده من جديد!.. ولم تكثر من الكلام في طريق العودة، ثم شكرت "**سيمون**" على دعوته، وصرحت له بأنه ليسرها إذا خاطبها تليفونيا ذات يوم. ونظر إليها "**سيمون**" وهي تغيب عنه، جامدا. وكان يحس بأنه شديد العناء، سيئ التصرف.

## الفصل الخامس

لقد كانت تلك مفاجاة سارة حقا. واستدار "**روجيه**" نحو المنضدة المجاورة لرأس السرير فتناول سيجارة. وهنا ندت عن المرأة الشابة إلى جانبه ضحكة صغيرة.

– إن الرجال يدخنون دائما، بعد هذا.

ولم تكن ملاحظة طريفة! فلم يعلق عليها "**روجيه**"، وإنما مد علبة السجائر إلى صاحبته، فاومأت بالرفض.

– "**ميزي**"، هل أستطيع أن أسالك سؤالا؟ ما الذي جرى لك هذا المساء؟ إنك طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ تعارفنا وأنت لا تفارقين ذلك السيد "**شيريل**"..

– السيد "**شيريل**" ينفعني في مهنتي.. والليلة طاب لي أن ألهو قليلا. أتفهم؟

وسجل في خاطره أنها تنتمي إلى هذا الجنس الذي يرفع الكلفة آليا، بمجرد الاستلقاء على فراش. وأخذ يضحك.

– ولماذا أنا؟ لقد كان في ذلك الحفل فتيان من أحسن ما ترومين!

– إن الشبان، كما تعلم، ناس يتكلمون ويتكلمون. ثم إنك أنت، على الأقل، يظهر عليك أنك تحب هذا. وأقسم لك أن هذه الصفة أصبحت نادرة.. والنساء يشعرن بذلك.. لا تقل لي أنك لم تتعود الفوز بالنساء...

فقال ضاحكا:

– ليس بمثل هذه السرعة.

وكانت في الواقع جميلة. ومما لا ريب فيه أن رأسها الضيق كان محشوا بالأفكار الصغيرة عن الحياة، والرجال، والنساء. فلو ألح في سؤالها قليلا، لشرحت له معنى الدنيا. وقد كان بالفعل يود أن يستطلع آراءها، ولكنه كان يحس –كما كان يحس في كل مرة– بالشرود والعطف، مرتاعا من التفكير في أن هذه الأجسام الحسان، التي يختلف بعضها عن بعض إلى هذا الحد، والتي يتوق دائما لاكتشافها، تدور في الشوارع وفي الحياة، لا توجهها إلا رؤوس صغيرة، حائرة، محدودة الذكاء. وربت على شعرها، فقالت:

– أنت، أنت لابد أن تكون رقيقا. إن الفحول من أمثالك رقاق الطبع دائما.

قال وهو ذاهل عنها:

– هذا صحيح.

ومضت وهي تقول:

– لا أريد أن أفارقك؛. ليتك عرفت كم هو ممل "**شيريل**"..

– لن أعرف ذلك أبدا.

– مـا رأيك يا "**روجيـه**" في أن نسافر يومين: السبت والأحد؟ ألا تريد؟ سوف نذهب إلى غرفة كبيرة في الريف، ولا نتحرك منها.

ونظر إليها. كانت قد نهضت واتكأت على مرفقها، ورأى الوريد ينبض في عنقها، وكانت تنظر إليه كما راحت تنظر إليه أثناء ذلك الحفل المشهود، وابتسم.

– قل نعم. وفي الحال، أتسمع..؟

فردد وهو يجذبها نحوه:

– في الحال.

وعضته في كتفه وهي تموء كالحيوان، فخطر له في ذهول أن تبادل الحب أيضا قد يتم بالبلاهة.

*****

قال "**بول**":

– خسارة! مهما يكن من شيء، أتمنى لك أن تحسن عملك، وألا تسرف في الإسراع بسيارتك. إني أقبلك.

ووضعت سماعة التليفون. لقد ضاعت عطلة نهاية الأسبوع.. فقد كان على "**روجيـه**" أن يسافر إلى مدينة "**ليـل**" يوم السبت هذا –كما شرح لها– لينجز بعض شؤونه مع شريكه المقيم هناك. وربما كان ذلك القول صدقا. كانت تفترض دائما أنه الصدق. وطار فكرها فجاة إلى الفندق الصغير الذي اعتادا أن ينزلا فيه معا، وإلى جذوات النار في المدافئ بكل مكان، وإلى الغرفة التي عبقت برائحة مبيد الحشرات... وتخيلت ما كان خليقا بأن يجري في هذين اليومين: تلك النزهات مع "**روجيـه**"، وتلك الأحاديث معه في المساء، وكيف يستيقظ كل منهما فيجد صاحبه بالقرب منه، ويجد الوقت متسعا أمامه، نهارا بأكمله، نهارا دافئا ناعما كشاطئ البحر، واستدارت نحو التليفون. كان يمكنها أن تتناول الغداء مع صديقة لها، أو أن تذهب لتقضي السهرة في لعب "**البريدج**" لدى.. ولكنها لم تكن ترغب في شيء. كانت تخاف من البقاء وحدها يومين. وكانت تكره أيام الأحد كما تتمثل في حياة امرأة وحيدة: كتب للقراءة في السرير، إلى ساعة متاخرة، ثم "**سينما**" غاصة بالجمهور، وربما "**كوكتيل**" مع شخص ما أو عشاء، وأخيرا عندما تعود، تعود إلى سرير أشعث، وملؤها هذا الإحساس بأنها لم تعش لحظة واحدة منذ الصباح. لقد قال "**روجيه**" إنه سيخاطبها في اليوم التالي. وكان رقيق الصوت في هذه المرة. سوف تنتظر مكالمته قبل أن تخرج. وعلى كل حال، كان لديها ما ينبغي أن تعنى به من شؤون البيت، من هذه الأشغال النموذجية التي كانت أمها دائما توصيها بأن تتقنها، هذه الآلاف من صغار الأمور النسائية التي كانت تعافها دون أن تدري لماذا. وكان الوقت تنين مائع يتحتم عليها أن تبيده. ولكنها تكاد تشعر بشيء من الأسف لانعدام هذا الذوق لديها. ترى هل تبلغ بنا الأيام أجلا معلوما ننتقل فيه من طور الهجوم على الحياة إلى طور الدفاع عن أنفسنا من شر الحياة، كما تدفع المرأة شر صديقة قد أنست إليها منذ عهد بعيد إلا أنها لا تحفظ سرا؟ هل مضى عنها زمان الهجوم وخلفها لزمان الدفاع؟ لقد خيل إليها أنها تسمع وراءها تنهدا عظيما، جوقة عظيمة من المنشدين تهتف بها إنه: "مضى! مضى!"

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك السبت، قررت أن تخاطب السيدة "**فـان دن بيش**"، حتى إذا كانت قد استبقتها معجزة عن انتجاع اللهو في "**دوفيل**"، تيسر لها أن تقضي فترة العصر في العمل معها. وكان العمل هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يغريها. وخطر لها أنها تشبه في ذلك بعض الرجال الذين يذهبون إلى مكاتبهم يوم الأحد لكي يتجنبوا عائلاتهم. وكانت السيدة "**فان دن بيش**" معتكفة على أثر نوبة خفيفة من آلام الكبد، وكان يبدو عليها الملل بشكل واضح، فرحبت بالاقتراح وتحمست له. وتزودت "**بـول**" بعينات من جميع الألوان، وقصدت شارع "**كليبر**". وهناك وجدت السيدة "**فـان دن بيش**" في رداء منزلي من الحرير الدمشقي، وبيدها كوب من مياه "**افيان**" المعدنية، وقد احمر وجهها من احتقان طفيف. وبدر لـ"**بول**" أن أبا "**سيمون**" كان من غير شك بارع الجمال، فلقد استطاع التعويض عن نقائص هذا

الوجه المبتذل.

– كيف حال ولدك؟ لعلك تعلمين أننا التقينا به في إحدى الأمسيات الأخيرة.

ولم تضف أنها تغدت معه في اليوم السابق، واندهشت هي نفسها من ذلك التحفظ. وإذا بها تبصر أمامها وجه شهيدة معذبة.

– من أين لي أن أعلم؟ إنه لا يكلمني، ولا يروي لي شيئا، ما عدا حاجته إلى النقود، طبعا! ثم إنه يكثر من الشراب وكان كذلك أبوه من قبله.

فابتسمت "**بول**" قائلة:

– لا يبدو عليه أنه من كبار المدمنين.

ولاح لها طيف "**سيمون**" بوجهه الأملس، وبشرته المتوردة كانجليزي يتغذى تغذية جيدة.

– إنه وسيم الطلعة، أليس كذلك؟

فانتعشت السيدة "**فان دن بيش**"، وأخرجت مجلدات عامرة بالصور، صور "**سيمون**" في طفولته، "**سيمون**" على صهوة مهر تتدلى حول وجنتيه خصل ملفوفة، "**سيمون**" يبدو مشدوها في زيه المدرسي، إلخ.. كانت بين يديها مجموعة من نحو ألف صورة له.. وقد أعجبت "**بول**" في سريرتها بأنه لم يتحول إلى مغرور بغيض، ولم ينحرف إلى معاشرة الذكور.

وزفرت الأم المحزونة قائلة:

– إنما يحل وقت من الأوقات يبتعد فيه الأولاد عن أمهاتهم.

ولم تلبث لحظة حتى استحالت إلى تلك المرأة الماجنة التي لابد كانتها في شبابها، وغمزت قائلة:

– ينبغي أن نعترف بأنه لا تنقصه الفرص المواتية!

فقالت "**بول**" في أدب، وهي تغير مجرى الكلام:

– بالتأكيد. هلا اطلعت يا سيدتي على هذه المنسوجات؟ إن واحدا منها..

– دعك من التكلف بيننا وسميني "**تيريزا**".

وفاض بها الود، فقدمت الشاي، وتبسطت في الحديث. وكانت "**بول**" تدير في خاطرها أن "**روجيه**" قد ضاجع هذه المرأة قبل عشرين سنة!.. وراحت تبحث بلا جدوى عن أثر من آثار الفتنة **على ذلك الوجه الثقيل**. وفي الوقت نفسه كانت تبذل **جهد** المستميت لتحصر الحديث **في نطاق العمل** الذي تزاوله، ولكنها كانت ترى إزاءها "**تيريزا**" تجنح في إصرار إلى **الإفضاء** بأسرارها النسائية!.. ولقد كان ذلك شأن "**بول**" **دائما**. كان يبدو على محياها من سمات الاتزان والعزة ما يستفز جليسها فيغرقها بسيل جارف من الثرثرة.

ولقد بدأت السيدة "**فان دن بيش**" بهذه العبارة:

– إنك على الأرجح أحدث مني سنا..

فلم تستطع "**بول**" أن تكتم ابتسامة أثارتها قولة "على الأرجح" هذه.

– ولكنك تدركين مبلغ تأثير الإطار في...

ولم تعد "**بول**" تصغي إليها. كانت هذه المرأة تذكرها بشخصية ما. ثم فطنت إلى أنها تشبه بكل بساطة تلك الشخصية التي حاكاها "**سيمون**" بالأمس. وهنا أيقنت أنه فتى موهوب ذو حدس مرهف، وأنه على حظ من قسوة، وإن كان يحجب قسوته بحيائه وتهيبه. ماذا قال لها؟ "إني إنهمك بأنك تركت الحب يولي عنك، وبأنك عشت تتعللين بالتوافه وتذعنين للأوضاع، إني أحكم عليك بالوحدة!". فهل كان يعنيها؟ هل استشف شيئا من حياتها؟ وهل تعمد ذلك؟ كانت تحس بالغضب يجتاحها وهي تستعرض هذه الفكرة.

وفيما هي لاهية عن الثرثرة المتصلة بجوارها، إذا بها تنتفض عندما يدخل "**سيمون**". أما هو فتوقف بمجرد أن رآها، وقطب وجهه بعض التقطيب ليخفي سروره الذي مس قلبها.

– إني أصل في الوقت المناسب. سوف أساعدكما.

– يا للأسف! لقد حان موعد انصرافي.

وأحست برغبة جامحة تدفعها إلى أن تنطلق، أن تلوذ بالفرار، أن تفلت من نظرتي الأم والابن، وأن تختبئ في بيتها آمنة تطالع كتابا. في تلك الساعة بعينها، ألم يكن من المفروض لها أن توجد في كنف "**روجيه**"، تدير المذياع وتطفئه، وتضحك معه، أو لعلها ترتعب، فقد كان يلم به ما يلم بالسائقين من تهور أعمى قد يوردهم مورد التهلكة أحيانا. ونهضت مستأنية.. فقال "**سيمون**":

– دعيني أرافقك.

وعند الباب، التفتت نحوه ونظرت إليه للمرة الأولى منذ قدومه. كانت على وجهه علامات الإعياء. فلم تستطع أن تمتنع عن تنبيهه إلى العناية بصحته. فقال:

– هذا من أثر الطقس. هل تسمحين بأن أرافقك حتى أسفل السلم؟

فهزت كتفيها، وضمهما السلم. كان يسير وراءها، دون أن ينطق بكلمة. وعندما بلغت الطابق الأخير، توقف، وإذ لم تعد تسمع وقع خطاه، استدارت في حركة آلية. كان معتمدا على السياج..

– هل عاودت الصعود من جديد؟

وانطفأ النور وأمسى السلم الكبير لا يضيئه إلا بصيص خافت يصدر عن نافذة. وبعينيها بحثت عن زر الاستصباح.

فقال "**سيمون**":

– إنه وراءك.

ونزل عن الدرجة الأخيرة وتقدم نحوها. وظنت "**بول**" في ضيق: "إنه سوف ينقض علي. ومد ذراعا إلى يسار رأسها، فأضاء النور، ثم وضع ذراعه اليمنى من الجهة الأخرى. وظلت في مكانها لا تستطيع فكاكا.. وإنما قالت في هدوء جم:

– دعني أمر.

فلم يجب، بل انحنى ووضع رأسه على كتفها، في رفق. وسمعت قلبه يخفق خفقات كبيرة، ثم أحست فجأة بالفتنة تسري في نفسها:

– دعني يا "**سيمون**".. إنك تضايقني.

ولكنه لم يتحرك. لم يزد على أن تمتم بصوت خفيض مرددا اسمها مرتين "**بول**"، "**بـــول**". ومن وراء عنقه، كانت ترى هيكل السلم وقد جثم في سكون، مكتئبا، متشامخا...

قالت هي أيضا بصوت خفيض:

– يا صغيري "**سيمون**"، خل سبيلي.

فتنحى عنها، وابتسمت له برهة قبل أن تمضي.

# الفصل السادس

عندما استيقظت، يوم الأحد، وجدت رسالة تحت بابها، بطاقة كان أهل الجيل الماضي يطلقون عليها اسما شاعريا فيدعونها "زُرقة". ولقد وجدتها شاعرية حقا إذ أضحت الشمس –وقد عادت إلى الظهور في سماء نوفمبر الصافية الرائقة –تملأ غرفتها بظلال وأنوار دافئة... وكانت الرسالة تقول: "هناك حفلة موسيقية بديعة جدا في الساعة السادسة، بقاعة "**باليل**". هل تحبين "**برامس**"؟ إني أعتذر عن الأمس. هكذا كتب "**سيمون**". وابتسمت. ابتسمت لورود الجملة الثانية: "هل تحبين "**برامس**"؟. إنه سؤال من ذلك النوع الذي كان يوجهه إليها الفتيان أيام كانت في السابعة عشرة من العمر. ولقد أعيد بلاشك إلقاء تلك الأسئلة عليها فيما بعد، ولكن دون أن يصغي السائلون إلى الجواب. وأما الآن، في هذه البيئة، وفي هذه المرحلة من حياتها، فمن ذا الذي كان يصغي، ولمن؟ ثم بغض النظر عن ذلك، هل كانت تحب "برامس"؟

فتحت جهاز "**البك –أب**"، ونقبت بين ما تقتنيه من الأسطوانات، فوجدت في ظهر إحدى افتتاحيات "**فاجنر**" –التي تحفظها عن ظهر قلب– "**كونشرتو**" من موسيقي "**برامس**" لم يسبق أن استمعت إليه قط. كان "**روجيه**" يحب "**فاجنر**"، ويقول عنه: "إنه جميل، إنه يثير ضجيجا، وهذه هي الموسيقى!" وأدارت "**الكونشرتو**"، فوجدت مطلعه عاطفيا، ثم نسيت أن تصغي إلى المقطوعة حتى آخرها. وفطنت إلى انصرافها عن الموسيقى عندما كف العزف، ولامت نفسها على ذلك. إنها الآن تحتاج إلى ستةأيام لكي تفرغ من مطالعة كتاب.. إنها تتيه عن الصفحة التي قرأتها... وتنسى الموسيقى.. لم يعد انتباهها يتركز إلا على عينات من النسيج، وعلى رجل غائب عنها دائما. لقد كانت تضل بين الأشياء، وتضل عن نفسها، وهيهات أن تثوب إلى أمر. "**هل تحبين "برامس"؟**".. وعبرت في لحظة أمام نافذتها المفتوحة، فتلقت الشمس في عينيها، وظلت مبهورة بها. هناك طرقتها هذه الجملة القصيرة "**هل تحبين "برامس"؟**" وكأنها تكشف لها منطقة عظيمة من نفسها شملها النسيان.. تكشف لها كل ما نسيته، كل الأسئلة التي تعمدت أن تتجنب مواجهتها. "**هل تحبين "برامس"؟**"... أو كانت تحب شيئا آخر غير نفسها، وغير وجودها الخاص؟ أجل، كانت تقول إنها تحب

"**ستندال**"، كانت "تعلم" إنها تحب هذا الكاتب... وتلك **هي العلة: كان** علمها بانها تحبه، يغنيها عن مطالعته.. وربما كانت تعلم -مجرد العلم أيضا- **انها تحب** "**روجيه**" فتستغني بهذا العلم عن الحب نفسه. ورب شيء اكتسبته النفس، واعتادته، يطيب لها.. كما يطيب لنا أن نعرف طريقنا في الحياة مسترشدين بعلامات سبق أن ثبتناها في مرحلة منه...

وتاقت إلى محادثة إنسان ما، كما كانت تتوق إلى ذلك في سن العشرين!.. ففزعت إلى "**سيمون**". ولم تكن تدري وهي ترفع السماعة ماذا تقول له. ربما تقول: "لا أعلم هل أنا أحب "**برامس**"، لا أظن. ولم تكن تدري أذاهبة هي إلى الحفلة الموسيقية أم لا. فقد يتوقف رفضها أو قبولها على ما يخاطبها به، أو على نبرة صوته.. كانت تتردد وتجد لذة في هذا التردد. ولكن "**سيمون**" كان قد خرج ليتغدى في الريف، وسوف يعود ليغير ملابسه في الساعة الخامسة. ووضعت السماعة. وقبل أن تضعها كانت قد قررت أن تذهب إلى الحفلة. ومضت تقول لنفسها: ليس "**سيمون**" هو الذي أعود إلى لقياه، وإنما هي الموسيقى. ولعلي أواظب على الذهاب إلى هذه الحفلات كل يوم أحد إذا لم يكن الجو بغيضا بعد الظهر، فذلك خير ما تشغل به امرأة وحيدة بعض فراغها... وفي الوقت نفسه، كانت تأسف لأن اليوم يوم أحد، لا تملك فيه الانطلاق في الحال إلى متجر مفتوح لتشتري مقطوعات "**موزار**" التي تحبها، وبعض مقطوعات "**برامس**". وخشيت أن يمسك "**سيمون**" بيدها أثناء عزف الموسيقى، وزاد من خشيتها أنها كانت تتوقع ذلك، وأن حدوث ما سبق أن تخيلته أمر كان يملؤها دائما بضيق لا يطاق. لقد أحبت "**روجيه**" من أجل هذا أيضا. فإنه دائما بجانب الشيءالمتوقع، وينشز بعض النشاز في جميع الأوضاع المكتسبة!

وفي الساعة السادسة، وجدت نفسها وسط لجة متحركة من البشر، وكادت تفقد "**سيمون**"، الذي مد لها تذكرتها دون أن ينطق بكلمة. ثم صعدا درجات السلم في اندفاع شديد بين هرج طائفة من حارسات القاعة. وكانت القاعة شاسعة ومظلمة، وقد بدأت الفرقة بعزف بعض الأنغام المتنافرة الشاقية، -على سبيل المقدمة- كأنما تريد بهذا التمهيد أن تزيد من إعجاب الجمهور بعد ذلك بمعجزة الاتساق الموسيقي. والتفتت "**بول**" نحو جارها:

- لم أكن أدري هل أنا أحب "**برامس**".

فقال "**سيمون**":

- وأما أنا، فلم أكن أدري هل أنت قادمة... وأؤكد لك أنه سيان عندي أتحبين "**برامس**" أم لا.

- وكيف وجدت الريف؟

فرمقها بنظرة ملؤها الدهشة.. وقالت "**بول**":

- لقد اتصلت ببيتك لكي أقول لك إنني.. إنني أقبل الدعوة.

قال "**سيمون**":

- إن خوفي من أن يكون جوابك بالنفي، أو ألا أتلقى منك جوابا على الإطلاق، هو الذي دفعني إلى الخروج.

- هل كان الريف جميلا؟ إلى أي ناحية ذهبت؟

وشعرت بلذة حزينة إذ تخيلت رابية "**هودان**" في ضوء الأصيل، وودت لو يحدثها "**سيمون**" عنها. وافتقدت عطلتها المنشودة التي كانت خليقة بأن تفضي بها مع "**روجيه**" -في هذه الآونة بعينها- إلى "**سيبتوي**"، حيث يتمشيان في نفس هذا الطريق الذي يذكره "**سيمون**"، تحت الأشجار الصهباء.

- لقد تنقلت من هنا لهناك، دون أن ألتفت إلى أسماء القرى. ولكن، ها هم يتأهبون للعزف.

وكان الجمهور يصفق، وقائد الفرقة يحيي.. ثم رفع عصاه، فاستوى كل منهما في كرسيه، كما استوى في نفس اللحظة ألف شخص! وكانت القطعة "**كونشرتو**"، بدا لـ"**سيمون**" أنه يعرفه من قبل، "**كونشرتو**" يتميز بطابع مؤثر إلى حد ما، عنيف التأثير في بعض المواضع. وكان يحس بمرفق "**بول**" يلامس مرفقه، وراح كلما انطلقت الفرقة ينطلق معها. غير أنه كان -إذا تهادى اللحن وخفت العزف- يعود إلى الشعور بسعال جيرانه، وبهيئة جمجمة واحد من المستمعين كان يجلس أمامه على بعد صفين منه، وإلى الشعور فوق كل شيء بما يكظم من غضب. ذلك أنه خلال نزهته في الريف، قابل "**روجيه**"، "**روجيه**" بصحبة فتاة!.. ولقد نهض "**روجيه**" عندئذ فحيا "**سيمون**"، دون أن يقدمه لها، وقال:

– يظهر لي أننا نلتقي في كل وقت؟

وتحت وقع المفاجأة، لم يجب "**سيمون**" بشيء. وكانت نظرة "**روجيه**" تهدده، وتأمره بأن يكتم قصة هذا اللقاء!.. لم تكن –ولله الحمد– نظرة التواطؤ الذي قد ينشأ بين ندين كريمين، وإنما كانت نظرة حاقد جن جنونه. ولم يكن "**سيمون**" بالذي يخشى بأس "**روجيه**"، بل كان يخشى أن يصبح هو السبب في تنغيص "**بول**" من جراء فعلة صاحبها ذاك.. كلا، لن يلحق شر بهذه المرأة من جرائه أقسم على ذلك لنفسه.. وللمرة الأولى في حياته أحس برغبة في أن يحول بين إنسان وبين الشقاء. وإذا به، وهو الفتى الذي كان سرعان ما يضيق بخليلاته بل وينفر من أحاديثهن العاطفية، ومن أسرارهن، ومن عزمهن المعقود على أن يثرن فيه –بأي ثمن يبذلنه– شهامة الرجل الخليق بحمايتهن.. "**سيمون**" هذا الذي طالما اعتاد الفرار، أمسي يتلهف إذ ذاك على العودة إلى باريس، ليكمن منتظرا ما عسى أن يسفر عنه الموقف! ولكن ماذا يجدي انتظاره؟ ماذا تراه يتوقع؟ أيتوقع أن تفهم هذه المرأة أنها تحب وغدا خاملا؟ ذلك آخر ما قد يحدث في الدنيا.. لابد أنها حزينة، لابد أنها تجتر في رأسها موقف "**روجيه**" منها، ولعلها تكتشف ما فيه من ثغرات، وانطلق كمان منفرد يحلق فوق الجوقة، ويخفق خفقات يائس مفجوع ممزق، ثم يهوي فيغرق على الفور في لجة من الأنغام الرخيمة الدافقة أقبلت تهزج بها الآلات الأخرى معا. وكاد "**سيمون**" يستدير ليحتضن "**بول**" ويقبلها... نعم، يقبلها! وتخيل أنه ينحني عليها، وأن فمه يمس فمها، وأنها تضع يديها حول عنقه وتطوقه.. وأغمض عينيه. وحسبت "**بول**" –إذ رأت هذا التعبير المرتسم على وجهه– أنه لابد من المولعين حقا بالموسيقى. ولكنها لم تلبث حتى أحست بيد مرتعشة تلتمس يدها، فأفلتت منها، نافدة الصبر.

وبعد انتهاء الحفلة، اصطحبها "**سيمون**" لتناول "**كوكتيل**"، أسفر بالنسبة إليها عن كوب من عصير البرتقال، وبالنسبة إليه عن كاسين من "**الدراي**". فتساءلت: أتصدق فيه مخاوف أمه السيدة "**فان دن بيش**"؟ وأما هو فقد أنشأ يحدثها في الموسيقى، وقد برقت عيناه، واضطربت بالتلويح يداه.. وظلت هي تصغي إليه بأذن شاردة. عسى "**روجيه**" أن يكون قد دبر أموره فتمكن من أن يغادر "**ليل**" مبكرا ليرجع في موعد العشاء. وفوق ذلك، كان الناس ينظرون إليهما. فلقد كان "**سيمون**" خلاب الصورة، **او كان بكل بساطة فتى في مقتبل الشباب، وهي** بجواره امرأة يولي عنها الشباب.. فما بالهما يخرجان على الملأ سويا؟

– ألا تصغين لي؟

– بلى. ولكن يجب أن ننصرف. إني أنتظر في البيت مكالمة تليفونية، ومن ناحية أخرى، أرى الناس يطيلون النظر إلينا هنا!

فقال "**سيمون**"، معجبا بها:

– لابد أن تكوني قد اعتدت من الناس ذلك.

ومالت به وطأة الموسيقى والشراب معا إلى الشعور بأنه قد أصبح عاشقا متيما.

وطفقت تضحك، فلقد كان أحيانا مؤثرا إلى أبعد الحدود.

– اطلب الحساب يا "**سيمون**".

فطلب الحساب إيذانا بانصرافهما، على كره منه شديد، لحظته فاستأثر بانتباهها، وإذا هي تنظر إليه مليا، لأول مرة بلا شك أثناء ذلك المساء. ترى هل أفضى به الأمر في رفق إلى الوقوع في حبها؟... ترى هل أخذ لهوه اليسير ينقلب عليه جدا وعسرا؟ لقد كانت تظن أنه مجرد فتى متعطش للمغامرات، يسعى إلى المتعة فحسب، ولكنه قد يكون في حقيقته غير ذلك: فتى أبسط نفسا، وأرق إحساسا، وأقل غرورا. ومن العجيب أن تكون آفته بالنسبة إليها هي وسامته. لقد كانت تجده آية في الجمال، يحول جماله دون صدقه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنها لتخطئ إذ تقابله، ويجب عليها أن تعدل عن صحبته. وكان قد نادى الخادم، وأخذ يدير كأسه بين يديه، دون أن ينطق بكلمة. كان قد صمت صمتا فجائيا. فوضعت يدها على يده، قائلة:

– لا تؤاخذني يا "**سيمون**" فإني مستعجلة إلى حد ما. لابد أن يكون "**روجيه**" في انتظاري ولقد سألها في أمسيتهما الأولى تلك، وهما في المطعم المسمى "عند ريجين": "هل تحبين "**روجيه**"؟، فبماذا أجابته؟ لم تعد تتذكر جوابها. وعلى كل حال، كان من الحق أن يعلم.

هناك قال لها: آه! نعم... "**روجيه**"... ذلك الرجل.. ذلك الألمعي..

فأوقفته قائلة:

– إني أحبه.

وأحست بالخجل يضرج وجهها، وبدا لها أن صوتها كان صوتا مسرحيا.

– وهو؟

– وهو أيضا.

– بالتأكيد. ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فقالت في لين:

– لا تتكلف فلسفة الشك، فهي لا تناسب عمرك. عليك أن تعيش في ثقة الشباب، عليك..

ولم يدعها تسترسل، بل أمسك بكتفيها وأخذ يهزها.

– لا تهزئي بي، وأقلعي عن مخاطبتي بهذا الأسلوب..

ودار في خلد "**بول**" وهي تحاول الفكاك من بين يديه: شد ما أنسى أنه رجل! إنه في هذه اللحظة رجل برأسه هذا، رجل يأبى الإهانة. إنه ليس في الخامسة عشرة، بل في الخامسة والعشرين.. هذا صحيح!

وقالت له في رقة:

– أنا لا أهزأ بك، وإنما أهزأ بما تتكلفه من المواقف فأنت تمثل..

وقد كان خلاها، وبدا عليه الإعياء. قال:

– صحيح إنني أمثل. أمامك مثلت دور المحامي الشاب اللامع، ودور العاشق الولهان، ودور الولد المدلل، وما لا يدريه إلا علام الغيوب... ولكنني منذ أن عرفتك أصبحت أؤدي لك جميع أدواري في الحياة. ألا تظنين أن هذا هو الحب؟

قالت وهي تبتسم:

– هذا تعريف للحب لا بأس به.

وصمتا بضع لحظات وقد تملكهما الحرج.. ثم قال:

– بودي لو مثلت دور عاشق مفتون.

– لقد قلت لك إنني أحب "**روجيه**"

– وأنا أيضا أحب أمي، وأحب مربيتي العجوز، وأحب سيارتي...

فقاطعته تقول:

– لست أرى وجه الصلة.

وانتابتها الرغبة في الانصراف. فهذا الفتى الكاسر المستشري، إن هو إلا صغير يافع، ما الذي يستطيع أن يفهمه من قصتها، من قصتهما التي نسجتها خمس سنين من اللذة والشكوك، ومن حميم التعاطف وتباريح اللوعة؟ لن يستطيع امرؤ أن يفصلها عن "**روجيه**". وأضمرت له عرفانا بالجميل إذ أوحى إليها شبابه الغض بهذا اليقين، بل وأضمرت له حنانا. وكادت تنوء من شدة ما دار في نفسها، فاعتمدت على المائدة.

وقال "**سيمون**":

– إنك تحبين "**روجيه**"، ولكنك وحيدة، إنك وحيدة يوم العطلة، وحيدة عندما تتناولين عشاءك، وحيدة –على الأرجح– عندما... أنت تنامين وحدك في أغلب الأحيان، ولو كنت أنا، لنمت ملتصقا بك، لاحتضنتك بين ذراعي طول الليل، ولقبلتك وأنت في سباتك. أنا مازلت أستطيع أن أحب. أما هو، فلم يعد يستطيع. وإنك لتعلمين ذلك..

فقالت وهي تنهض من مجلسها:

– ليس لك الحق في...

– بل لي الحق في أن أتكلم، ولي الحق في أن أستجيب لحبك، وفي أن آخذك منه، إذا أمكنني!

ولكنها كانت قد خرجت قبل أن يكمل عبارته. فنهض ثم جلس مرة أخرى، ورأسه بين كفيه. ولازمته هذه الفكرة: "لابد لي منها.. لابد لي منها.. وإلا فسوف أشقى".

# الفصل السابع

"**ميزي**" هذه –وكانت قد باحت له بأن اسمها لم يكن في الواقع سوى "**مارسيل**"، وهو اسم مبتذل لا يقر عقل سليم أبدا أنه يلائم مواهبها التي ترشحها لأن تصبح نجمة سينمائية –"**ميزي**" هذه قد برت بوعدها له فمنذ أن رقدت لم تحاول أن تنهض بعد ذلك، على نقيض فئة معينة من الخلق يعرفها "**روجيه**"، يوجد بالنسبة إليها موعد لـ"**كوكتيل**"، وموعد للغداء، وموعد للعشاء، وموعد للشاي.. إلى آخر تلك الفرص الذهبية التي تقتنصهاالمرأة لاستبدال ثيابها وتجديد زينتها. لقد قضيا يومين دون أن يبرحا غرفتهما سوى مرة واحدة، وهي بطبيعة الحال تلك المرة التي صادف خلالها ذلك الفتى الرقيق الرشيق، ابن "**تيريزا**" العزيزة. ولم يكن "**روجيه**" –دون شك– يتعرض لخطر مقابلة "**بول**" ولكنه ظل فريسة لقلق لا يستبينه. إن تذرعه بالسفر إلى "**ليل**" لم يكن علة مناسبة، لا لأنه يتورع عن خيانة "**بول**"، أو الكذب عليها، وإنما لأنه كان حريصا على ألا تؤرخ مغامراته بتاريخ، أو تحدد بمكان، إذ ما الذي عساه أن يحدث لو قال: "لقد التقيت بصاحبك –بطل تلك الليلة– وهو يتغدى يوم الأحد في "**هودان**"؟... لقد تخيل "**بول**" عندما تقرعها هذه العبارة فلا تنطق بكلمة، وربما حولت بصرها عنه برهة وجيزة.. "**بول**" في عذابها.. إنها صورة أصبحت الآن عتيقة، صورة طردها عنه مرارا ومرارا حتى باتت تثير فيه الخجل، والخجل أيضا من اشتياقه إلى الإلمام بها عما قليل، بعد أن يعيد "**ميزي – مارسيل**"!.. ولكنها لن تقف على أمره، إذ لابد إنها قد آثرت الراحة هذين اليومين أثناء غيابه، بعد أن أرهقها بكثرة الخروج معه.. ولعلها قد تسلت حينا بلعب "**البريدج**" مع بعض أصدقائها، وحينا بتدبير المنزل، وحينا بقراءة ذلك الكتاب الجديد.. وتساءل فجأة: لماذا هو يلح في التماس برنامج ليوم الأحد هذا في حياة "**بول**"؟

وقال صوت بالقرب منه:

– إنك تقود جيدا.

ورأته "**ميزي**" قد انتفض!

– أو تظنين؟

– إنك فوق ذلك تجيد كل ما تفعله.

ولقد أردفت بهذه الجملة وهي تلين على مقعد العربة.

فاعترته رغبة في أن يقول لها أن تنسى.. أن تنسى لحظة جسمها الذي تعززه، وشهواتها التي أشبعتها. وصدرت عنها ضحكة سقيمة أو متساقمة، ثم تناولت يده فوضعتها على ساقها. كانت كتلة كثيفة دافئة تحت أصابعه، وابتسم. لقد كانت حمقاء، ثرثارة، هازلة. ومن فرط استهزائها بالغرام، كانت تضفي على الهوى لذعا طريفا. وكان أسلوبها في إعدام أية نزعة في نفسه إلى الرقة الحانية، أو إلى الزمالة المتبادلة، أو إلى شيء من الجد، أسلوبا يزيدها إغراء وفتكا. واعترف في سريرته بأنها "شيء صغير قذر، رائع لا سبيل إلى الاتصال به، مغرور، سوقي، بيد أنه يتقن لي قضاء الوطر. وأخذ يقهقه. ولم تسأله لماذا يقهقه، وإنما مدت يدها نحو المذياع. وتبع "**روجيه**" حركتها بعينيه.. ما الذي قالته "**بول**" ذات ليلة، منذ عهد غير بعيد؟ ما هذا الذي قالته بشأن المذياع وسهراتهما..؟ إنه لم يعد يذكر. وكانت تذاع حفلة موسيقية، فقاطعتها، ثم عادت إليها بعد أن استعرضت محطات أخرى ولم تجد خيرا منها... وكانت الموسيقى لـ"**برامس**"، كما قال المذيع بصوت مرتعش ثم دوى التصفيق. فقال:

– عندما كنت في الثامنة من عمري، كانت أمنيتي أن أصبح قائد فرقة موسيقية. وأنت؟

قالت:

– أما أنا فكنت أريد أن أشتغل بالسينما، ولسوف أصل إلى ذلك.

فأجابها بأنه يظن ذلك ممكنا.. وأنزلها أخيرا أمام بابها فتعلقت بسترته وراحت تقول:

– غدا سأتناول العشاء مع صاحبي الكريه. ولكني أريد لقاء حبيبي "**روجيه**" الصغير، قريبا جدا جدا. سوف أخاطبك حالما أجد لحظة فراغ.

وابتسم، مغتبطا إلى حد ما بأن يسند إليه دور الفتى العاشق المستخفي، لا سيما عن رجل آخر يناهز نفس سنه. وأردفت قائلة:

– وأنت؟ أتسطيع؟ لقد قيل لي إنك لست رجلا خاليا...

فقال وعلى وجهه قليل من العبوس:

– إنني رجل خال.

وما كان لها عليه أن يحدثها عن "**بـول**"!.. وخطت **خطوة واسعة أصعدتها** على الرصيف، ثم لوحت بيدها من وراء الباب الخارجي لدارها، واستأنف **هو** سيره. كانت عبارته الأخيرة تثير فيه شيئا من الضيق. "إنني رجل خال". معنى ذلك: "رجل حر لا يتقيد بمسؤولية. واستعجل سيارته، فلقد كان يريد أن يلاقي "**بـول**" بأسرع ما يمكن. إنها وحدها التي تستطيع أن تطمئنه، ولسوف يجد منها ما يطمئنه!

*****

لابد أنها عادت قبيل وصوله توا، لأنها لم تزل مرتدية معطفها. وكانت شاحبة الوجه، وما كاد يدخل حتى ارتمت عليه، وظل رأسها على كتفه، بلا حراك. فضم حولها ذراعيه، وأراح خده على شعرها، وانتظر منها أن تتكلم. لقد أحسن بالعودة مبكرا، فإنها كانت في حاجة إليه، ولا شك في أن حادثا ما قد حدث لها. وإذ آنس في نفسه أنه قد حدس ذلك، شعر بحنانه نحوها ينمو ويعظم. كان يحميها. أجل، لقد كانت قوية، ومستقلة، وذكية، ولكنها ربما كانت أشد أنوثة من أي امرأة عرفها على الإطلاق –وهو أدرى بذلك– ومن ثم لم يكن لها غناء عنه. ثم انسلت في رقة من بين ذراعيه.

– هل كانت رحلتك موفقة؟ وكيف وجدت "**ليل**"؟

فرمقها بنظرة. كلا، يقينا، لم تكن تسيء الظن بشيء. لم تكن من جنس أولئك النساء اللواتي ينصبن الشراك على هذا النحو، ورفع حاجبيه مجيبا:

– لا بأس.. ولكن أنت، ما خطبك؟

فقالت:

– لا شيء.

وأشاحت عنه. وأما هو فلم يلح في سؤالها، فهو واثق بأنها سوف تشرح له الأمر فيما بعد.

– ماذا فعلت هنا؟

– أمس، استأنفت العمل. واليوم، ذهبت إلى حفلة موسيقية، بقاعة "**بلييل**".

قال وهو يبتسم:

– هل تحبين "**برامس**"؟

وكانت تدبر له ظهرها، **فالتوت تقول له في صورة فجائية** دفعته إلى أن يتراجع خطوة إلى الوراء:

– ما بالك تسألني هذا السؤال؟

– لقد سمعت جزءا من الحفلة مذاعا، وأنا في طريق العودة.

فقالت مستدركة:

– نعم، بكل تأكيد، كانت الحفلة مذاعة، هذا صحيح.. ولكنك تدهشني، فما كنت أتوقع فيك هذه الناحية الموسيقية...

– وفيك أنت أيضا. فماذا جرى لك؟ لقد كنت أتمثلك تلعبين "**البريدج**" عند آل "**داريه**"، أو...

وكانت قد أوقدت مصابيح غرفة الاستقبال الصغيرة وراحت تخلع معطفها في حركة بادية الإعياء.

– لقد دعاني "**فان دن بيش**" الصغير إلى سماع الموسيقى، ولم يكن عندي ما يشغلني، وحاولت أن أتذكر هل أنا أحب "**برامس**"... هل تعتقد ذلك؟... ما عدت أذكر هل أنا أحب "**برامس**"...

وطفقت تضحك ضحكة خفيفة في أولها، لم تلبث حتى تحولت شيئا فشيئا إلى قهقهة عالية. وانطلقت دوامة في رأس "**روجيه**". "**سيمون فان دن بيش**"؟ هل ترى لم ينبئها الفتى بلقائهما.. في "**هـــودان**"؟ وقبل كل شيء لماذا تسترسل هكذا في الضحك؟.. وقال لها:

– "**بول**"، اهدئي. وقبل كل شيء، ماذا كنت تفعلين مع هذا الولد الأفاق؟

قالت، بين ضحكتين:

– كنت أصغي إلى "**برامس**"...

– دعك من الحديث عن "**برامس**"..

– إنما هو جوهر الموضوع...

فأمسك بها من كتفيها. وكانت عيناها قد اغرورقتا بالدمع من فرط ما ضحكت. وقال لها:

– "**بول**"، حبيبتي "**بول**".. ماذا روى لك هذا الشخص؟ وأولا، ما الذي يريده منك؟

لقد كان هائج الغضب، يحس أنه فقد مكانه، وتخلف عن **الركب، وأصبح** هزأة.

ومضى يقول:

– بطبيعة الحال، إنه في الخامسة والعشرين من العمر.

فقالت في رقة:

– تلك في نظري نقيصة.

وهنا استعادها بين ذراعيه قائلا:

– "**بـول**"، إن ثقتي بك وطيدة... وطيدة لا تتزعزع! ولا أطيق أن أتصور أن تافها من هذا القبيل يستطيع أن يروقك.

وجعل يضمها إليه. وإذا به يتخيل فجاة صورة "**بول**" وهي تمد يدها نحو رجل آخر، صورة "**بول**" وهي تقبل رجلا آخر تمنحه حنانها وتؤثره بعنايتها، لقد كان يتعذب.

ورددت "**بول**" في نفسها، دون أسى: ما أشد غفلة الرجال! "إن ثقتي بك وطيدة"، وطيدة إلى درجة أنني أستطيع أن أخونك، وأن أتركك وحيدة، وأن يكون عكس ذلك مستحيل الوقوع. إنه لشيء رائع!

وقالت:

– هو لطيف وتافه. هذا كل ما هناك. أين تريد أن نتعشى؟

# الفصل الثامن

كانت رسالة "**سيمون**" تقول:

"اني أسالك المغفرة. فلم يكن يحق لي، في الواقع، أن أقول لك كل هذا. لقد كنت تحت وطأة الغيرة، وأحسب أن المرء لا يجوز له أن يغار إلا على ما يملك. ومهما يكن من أمر، فإنه ليظهر لي في وضوح أنني كنت أضايقك قبل كل شيء. ولسوف أنزاح عنك، إذ أرحل إلى الأقاليم مع أستاذي العزيز، لندرس إحدى الدعاوى. وسننزل في بيت ريفي عتيق، ضيفين على بعض أصدقائه. وأتخيل هناك رائحة العشب تفوح من الفراش، والنار توقد في كل حجرة، والطيور تغرد أمام نافذتي في الصباح. ولكني أعلم أنني –في هذه المرة– لن أستطيع تمثيل دور الفتى الحالم بالأرض الطيبة، المفتون بجمال الريف. فلسوف تنامين بجواري، سوف أعتقد أنك في متناول يدي، تسطع على وجهك الجذوة الموقدة، وسوف أهم عشر مرات بالعودة قبل انقضاء العمل. لا تعتقدي –ولو كنت لا تريدين لقائي إلى أبد الدهر– لا تعتقدي أنني لست أحبك.

"**سيمونك**"

ولبثت الرسالة حائرة بين أصابع "**بـــول**". وأخيرا انزلقت على الفراش، ثم على السجادة. وأراحت "**بول**" رأسها على وسادتها، وأغمضت عينيها. لا شك في أنه كان يحبها.. لقد كانت هامدة العزم في هذا الصباح، بعد ليلة شابها الأرق. أو كان مصدر عنائها تلك العبارة القصيرة التي أفلتت البارحة من "**روجيه**"، عندما راحت تستجوبه عن طريق عودته؟.. تلك العبارة القصيرة التي لم تفطن إليها في أول الأمر، ولكنه ارتطم بها، وانخفض صوته تدريجيا وهو يفوه بألفاظها حتى انتهى إلى تمتمة:

– أجل، إن العودة إلى العاصمة يوم الأحد عمل شاق دائما.. ولكن النفق المخصص للسيارات في مدخل المدينة من تلك الجهة، طريق سريع في الواقع، ولو كان غاصا..

والحق أنها ما كانت لتلاحظ شيئا لو لم يغير نبرة صوته. كانت خليقة بأن تتخيل في الحال –تلبية لهذا الإحساس الذي تأصل فيها منذ سنتين، والذي يدفعها إلى إغداق الحماية على "**روجيه**"– كانت خليقة بأن تتخيل نفقا جديدا للسيارات تجاه "**ليل**" نفقا رائعا شقته معجزة. ولكن "**روجيه**" توقف، ولم تكن قد نظرت إليه، وتحتم عليها هي

-بعد انقضاء خمس عشرة ثانية- أن تستانف الحوار من طرفه **المقطوع، وأن تعيده إلى** مجرى حديث طبيعي بين شخصين هادئين. واتصل حديثهما على **هذا النحو** حتى فرغا من العشاء، غير أن "**بول**" كانت ترى أن إعياءها، وهبوط الهمة الذي كانت تشعر به فوق شعورها بكل غيرة وكل تحرق إلى الاستطلاع، لن يفارقاها بعد ذلك أبدا!.. وكان نصب عينيها هذا الوجه الذي ألفته أشد الألفة وأحبته أشد الحب، مائلا عليها يحاول أن يعرف هل فهمت خبيئته، هذا الوجه الذي كان يبحث عن الألم مرتسما على وجهها هي، وكأنه إزاءها جلاد أوتي من القسوة ما لا يطاق. إذ ذاك انتهى بها بؤسها إلى هذا الخاطر: "أفلا يكفيه أنه يسومني العذاب؟ أو لا يستطيع -على الأقل- أن يقف اهتمامه عند هذا الحد، وأن تستوي لديه الأمور بعد أن يفعل فعلته؟".. وبدا لها أنها لن تتمكن هناك أبدا من النهوض عن كرسيها ومن اجتياز قاعة المطعم بما كان ينتظره منها من طلاقة ورشاقة، بل ولن تتمكن من أن تقول له: "إلى اللقاء" حين تودعه على باب دارها. ولقد كانت تود لو تستطيع القيام بشيء آخر، كانت تود لو تستطيع أن تشتمه، وأن تقذف رأسه بكأسها، وأن تخرج عن طورها، وعن كل ما يخلع عليها سمة الوقار، وكل ما يميزها عن شرذمة هؤلاء النسوة الساقطات اللواتي كان يتطلع إليهن. كانت تود لو أنها أصبحت واحدة منهن. فقد استنفد صبرها بتحدثه إليها عنهن، وتصوير ما يمثلنه بالنسبة لحسه، معترفا بأن هذه هي طبيعته، مصرحا بأنه لا يريد أن يكتم عنها الواقع. ولكنها كانت تتساءل: هل الأمانة -لون الأمانة الوحيد الممكن في هذه الحياة المستعصية- شيء سوى أن يحب المرء شخصا فيغمره بما يكفي من الحب لإسعاده.. ولو اقتضته الحاجة أحيانا أن يتخلى عن تسلياته الأثيرة؟

وكانت رسالة "**سيمون**" لاتزال على السجادة، فوطئتها قدمها وهي تنهض. وهنا التقطتها، وأعادت قراءتها. ثم فتحت درج منضدتها فتناولت قلما وورقا، وكتبت الجواب.

وكان "**سيمون**" قد بقي وحيدا في غرفة الاستقبال، زاهدا في الاختلاط بالجمهور الذي راح -عقب انتهاء الدعوى- يزجي الثناء على الأستاذ الكبير. وكان البيت كئيبا باردا، فقد هبطت الحرارة في الليلة البارحة دون درجة التجمد، وكان الناظر من النافذة يرى مشهدا يابسا شجرتين جرداوين، وحديقة قد اصفر بساطها الأخضر وأخذ العطن يدب فيها إلى كرسيين كبيرين من القش، قدمهما ضحية للخريف بستاني لا يبالي. وكان يقرأ كتابا إنجليزيا: قصة غريبة عن امرأة استحالت ثعلبا، ويقهقه من حين إلى آخر قهقهة عالية، غير أن رجليه كانتا تضطربان، فتارة يضع ساقا على ساق، وتارة يرفع ساقا عن ساق وسرى إحساسه بالقلق البدني شيئا فشيئا حتى بلغ ما بين الكتاب وبينه، وإذ ذاك نهض، وألقى الكتاب عنه، وخرج.

ونزل على الأرض المنحدرة حتى وصل فيما يلي الحديقة إلى غدير صغير، يتضوع برائحة البرد ورائحة المساء وقد امتزجتا برائحة أبعد، صادرة عن حريق كومة من أوراق الخريف الجافة، كاد يميز دخانها وراء سياج. لقد كان يحب هذه الرائحة الأخيرة ويفضلها على كل عبير سواها، فوقف لحظة ليستنشقها في عمق، مغمضا عينيه. وبين الفينة والفينة كان طائر يطلق صيحة عاطلة من الرقة. ولقد أدت تلك اللوحة الجامعة، أدى تضافر ما تنفثه من الحنين، إلى التخفيف من حنينه هو، دون أن يتبين ما فاض في نفسه. وانحنى على الماء المعتم، وغمس فيه يده، ونظر إلى أصابعه النحيلة التي بدت في الماء مائلة، بل وشبه عمودية على كفه.. وظل في مكانه يضم قبضته تحت الماء ضما وئيدا، وكأنه يريد أن ياسر فيها سمكة خفية. ها هو ذا لم ير "**بول**" منذ سبعة أيام، سبعة أيام والنصف. ولابد أنها قد تسلمت رسالته، فهزت كتفيها قليلا، ثم خبأتها لتتجنب أن يطلع عليها "**روجيه**" وأن يستهزئ به. فلقد كانت طيبة القلب، إنه يعلم ذلك حق العلم. كانت طيبة القلب، رقيقة الشعور، بائسة، وأنه لفي حاجة إليها. ولكن كيف السبيل إلى إبلاغها ذلك؟ لقد حاول بالفعل، ذات مساء، في ذلك البيت الموحش، أن يوجه نحوها فكره، وأن يحصر هذا الفكر في تيار طويل مركز خليق بأن ينالها، وهي هناك في مكانها من باريس النائية، بل ونزل من غرفته بالبيجاما لينقب في مكتبة الدار عن كتاب في علم تجاوب الأرواح، وعبثا كان تنقيبه، بطبيعة الحال! لقد كان هذا عملا صبيانيا، وهو يدرك ذلك، إلا أنه مضى يسعى دائما إلى تصور الفرج لكل موقف بحلول ساذجة كالتي يتفتق عنها منطق الأطفال، أو بالتطير والرجم بالغيب. ولكن "**بول**" كانت شخصية يجب على طالبها أن يثبت جدارته بها -أجل، إنه لا يخفي هذه الحقيقة عن نفسه. فلا قدرة له على الفوز بهما مهما بذل دونها من جاذبية، ومهما جد في اختلابها بألوان الفتنة. بل إنه كان يلمس، على النقيض، أن

وسامته تضر به لديها. وإذا به يجار، في صوت مرتفع "إن لي سحنة **صبي الحلاق**"، وإذا بالطائر يكف لحظة عن أنينه الموجع.

وصعد نحو البيت متمهلا، فاستلقى على السجادة، ووضع كتلة من الخشب في النار. وتمثل الأستاذ "**فلوري**" إذ يعود عما قليل، متواضعا في فرحته، إلا أنه في الواقع أكبر رضا عن نفسه وأشد اعتدادا بها مما هو عليه في أيامه العادية.. سوف يستعيد ذكريات قضايا شهيرة، على ملأ من سيدات الأقاليم، ليبهرهن.. حتى يتعبن من الإصغاء إليه، فينتهزن فرصة تقديم الحلوى في آخر العشاء، ليحولن أنظارهن التي غشاها الشراب "**البورجوني**" بغشاء خفيف، صوب مساعده المحامي تحت التمرين، ذلك الفتى المهذب الصامت، أي هو بعينه. وسوف يهمس له الأستاذ "**فلوري**" قائلا: "إن الحظ يواتيك بهذه المرأة المقبلة عليك". وهو يشير في أرجح الظن إلى أكبرهن سنا. لقد سبق لهما أن قاما بأمثال هذه الرحلة معا، ولكن غمزات المحامي العظيم، المأخوذة دائما، لم تدفع بأي منهما يوما إلى شوط بعيد المدى.

ولقد تحقق ما تكهن به. على أن هذا العشاء قد ساده مرح دافق، قل أن نعم بمثله في المآدب التي شهدها طيلة حياته. فهو لم يمسك عن الكلام، بل وألجم لسان المحامي الكبير، وخلب جميع النساء الحاضرات. كان الأستاذ "**فلوري**"، عند وصوله، قد أعطاه رسالة محولة من عنوانه بشارع "**كليبر**" إلى عنوان محكمة "**روان**". وكانت من "**بول**". فكان يضع يده في جيبه، ويحس بها تحت أصابعه، ويبتسم من السعادة. وكان يحاول، وهو مسترسل في أحاديثه، أن يتذكر عبارات الرسالة بحذافيرها، ويستمتع بإعادة تركيبها في ذهنه.

"**سيمون**" الصغير -فهكذا كانت تدعوه دائما- لقد كانت رسالتك مسرفة في الحزن. ولست أستحق هذا كله. على أنني كنت في شوق إليك. وما عدت أدري في وضوح أين أصبح مكاني مما يحيط بي -وهنا خطت اسمه مرة أخرى: "**سيمون**"- ثم أضافت هاتين الكلمتين الرائعتين: عد بسرعة.

لسوف يعود على الفور، عقب انتهاء العشاء مباشرة. لسوف يقود سيارته بسرعة كبيرة جدا حتى باريس، ويمر أمام بيتها، وربما يراها!

وفي الساعة الثانية كان أمام بيتها، عاجزا عن الحركة. وبعد انقضاء نصف ساعة، وقفت عربة أمامه، ونزلت منها "**بول**"، **وحدها**. ولم يتحرك، وإنما نظر إليها تعبر الشارع، ثم تلوح بيدها للعربة التي استانفت السير. لقد كانت هي "**بول**". وكان يحبها، ويصغي إلى هذا الحب في داخله ينادي "**بول**"، ويلحق بها، ويتحدث إليها.. وظل يصغي دون أن يتحرك، مرتاعا، موجع النفس، فارغها...

# الفصل التاسع

كانت بحيرة غابة "**بولوني**" تنبسط أمامهما، مثلجة، تحت شمس كئيبة. ولم يكن هناك سوى رياضي واحد يجدف، واحد من أولئك الرجال الغريبي الشأن الذين يراهم الناظر كل يوم يسعون إلى المحافظة على قوام لا يعن مع ذلك لامرئ أن ينتبه إليه، من فرط ما تتشابه أبدانهم. وكان يبذل جهودا عنيفة لاستدعاء الصيف على صفحة البحيرة، مثيرا بمجدافه أحيانا حزمة من الماء المتلألئ، الفضي، تكاد تمجها العين، إذ قد لاح الشتاء حزينا بين الأشجار الجامدة. وكانت "**بول**" ترنو للرياضي وهو يصطرع في عقر زورقه، متغضن الجبهة. لسوف يدور دورته حول الجزيرة، ويرجع إلى بيته متعبا، راضيا عن نفسه..

وتاملت هي تلك الدورة اليومية العنيدة فاكتشفت فيها معنى رمزيا. أما "**سيمون**"، فقد كان بالقرب منها، واجما، كان ينتظر. والتفتت نحوه وابتسمت. فتطلع إليها دون أن يرد لها ابتسامتها. إنه لم يكن يجد أي وجه من وجوه الشبه بين "**بول**" تلك التي من أجلها قطع إقليما في الليلة البارحة، "**بول**" المقبلة عليه، العارية -كما كان يعلم ذلك علم اليقين- المهزومة في نفسه هزيمة الطريق التي راح ينهبها نهبا، وبين "**بول**" هذه الهادئة، التي لا تكاد تسرها رؤيته، والتي أضحت تغفو إلى جانبه على كرسي من الحديد، في إطار عتيق مبتذل. لقد كان خائب الأمل، وكان يموه خيبة أمله فيعتقد أنه لم يعد يحبها. إن هذه الأيام الثمانية التي قضاها في الريف، تحصره فكرة واحدة، داخل ذلك البيت الموحش، لمثل رائع يبين له إلى أي شطط يستطيع أن يجرفه خياله. ولكنه في الوقت ذاته لم يكن بالقادر على أن يكبت في باطنه هذه الرغبة الأليمة، هذا الدوار الذي يعتريه بمجرد أن يخطر له أن يقلب هذا الرأس الكليل على ظهر الكرسي، مبرحا هكذا برقبتها، وأن يدني فمه من هذا الفم المليء، الأمن المطمئن، والذي منه كانت تتساقط منذ ساعتين كلمات السكينة واللطف التي لم يكن لها محل من نفسه. إنها قد كتبت إليه تقول: "عد بسرعة". وفوق ندمه على تمني هاتين الكلمتين وانتظارهما، كان يندم على ابتهاجه بقدومها إليه، على فرحته البلهاء، على ثقته. لقد كان خيرا له لو بات شقيا لسبب صحيح من أن يصبح سعيدا لسبب باطل!..

وقال لها ذلك، فحولت بصرها عن المجدف لتحدق إليه، وترد عليه:

– يا "**سيموني**" الصغير، شأنك في هذا شأن الجميع، وذلك آية على أن الذي تصبو إليه شيء طبيعي.

وطفقت تضحك. إنه قد وصل كالمجنون إلى شارع "**ماتنيون**" في الصباح، فافهمته من فورها أن تلك الرسالة ما كانت تعني شيئا.. وعاد يقول:

– ومع ذلك، فلست أنت من أولئك النساء اللواتي يكتبن "عد بسرعة" إلى أي امرئ كان.

فقالت:

– لقد كنت وحيدة، وكنت في حالة عجيبة. ومن البديهي أنه ما كان لي أن أكتب لك "عد بسرعة"، هذا صحيح! على أنها كانت تعتقد عكس ما تقول. فها هو ذا هنا، وإنها لسعيدة بوجوده هنا. يا لوحدتها... شد ما كانت وحيدة! فلقد مضى "**روجيه**" إلى قصة جديدة (لم تدعها ألسنة الناس على جهل بها) مع فتاة مجنونة من صغار ممثلات السينما، وكان على الأرجح يستحي منها، وإن لم يتحدثا عنها قط، ولكنه كان ينتحل للتبرؤ من خيانته أدلة شتى لم يكن الرضا عن نفسه هو الذي يمده بها في العادة. لقد تعشت هي معه مرتين خلال ذلك الأسبوع. مرتين فقط. والواقع أنها لولا هذا الفتى إلى جانبها، وهو الذي أشقته بتصرفها، لأصبحت هي في أقصى درجات الشقاء.

قال:

– تعالي نرجع. إنك تسامين.

فنهضت دون اعتراض. لقد كانت نفسها تنازعها إلى مغايظته، فتلومها كالمشفقة من ارتكاب عمل وحشي. وكانت تلك القسوة هي الوجه الآخر لحزنها، تلك الحاجة العشواء لثأر لم يكن يستحقه منها. وركبا سيارة "**سيمون**" الصغيرة، فابتسم ابتسامة مريرة إذ تذكر الصورة التي كانت نزهتهما هذه الأولى معا خليقة بأن تتخذها في مخيلته.. صورة يده في يد "**بول**"، وهو يقود السيارة بيسراه قيادة تتخللها معجزات البراعة، بينما ينحني عليه هذا الوجه الحسن. ومد يده نحوها على غير هدى، فأخذتها بين يديها. وجال في خاطرها: "أو لن أستطيع أبدا، أبدا، أن أقترف هفوة؟". وأوقف العربة، فلم تقل هي شيئا، ونظر هو إلى يده، جامدة، بين يدي "**بول**" المنفرجتين، المتاهبتين لإطلاق يده، وكانهما لا تتمنيان غير ذلك، فالقى برأسه إلى الوراء، وقد اعتورته فجاة سآمة مميتة، واستسلم لقرار مفارقتها إلى أبد الدهر. في تلك اللحظة، شاخ ثلاثين سنة، وراح يذعن للحياة، وبدا لـ"**بول**" إذ ذاك أنها تتعرفه للمرة الأولى!

فللمرة الأولى لاح لها شبيها بها، شبيها بهما (هي و"**روجيه**")، **ذا مناعة** تقي شعوره من أن ينجرح لأنها كانت تعهده مرهف الشعور، وما كانت **تتخيل** انسانا بلا شعور مرهف. لاح لها وكأنه قد تحرر، وكأنه قد تجرد من كل ما كان صباه وحسنه وعدم خبرته يخلعه عليه من هذا الطابع الفج الذي لا يطاق في نظرها، فلقد كانت دائمة تحس إحساسا مبهما بأنه سجين، سجين.نعومته ونعومة حياته. وها هو ذا يقلب رأسه، لا نحوها، بل نحو الأشجار، رأس رجل نصف ميت قد كف عن الصراع. وفي الوقت ذاته تذكرت "**سيمون**" المستبشر، المشدوه، الذي لقيته في رداء البيت، فتاقت إلى أن ترده لنفسه، وأن تطرده عنها نهائيا مسلمة إياه بذلك إلى شجن عابر ثم إلى ألف فتاة وفتاة، ما أسهل ما كانت تتصور إقبالهن عليه!.. ولسوف يعلمه الزمن، فالزمن خير منها استاذا وأطول عليه أناة.. وكان قد أهمل يده الجامدة في يدها، فانست نبضه على أناملها، وفجأة، والدموع تملأ عينيها -وإن كانت لا تدري أتذرفها على هذا الفتى المدنف أم على ما يشوب حياتها من شقاء- جذبت هذه اليد صوب شفتيها، وقبلتها.

ولم يقل شيئا، وإنما استأنف السير.. لأول مرة، حدث شيء ما بينهما!.. كان يعي ذلك، وكان أسعد به مما كان البارحة. فلقد "رأته" أخيرا، وفطنت إليه. وإذا كان من الحماقة بحيث قدر أن أول حادث بينهما لا يمكن أن يكون إلا ليلة حب، فلا يلومن على هذا الضلال سوى نفسه. إنه لفي حاجة إلى كثير من الصبر، وكثير من الحنان، ومزيد من الأيام بلا شك، ولقد كان يشعر بنفسه صبورا، حانيا، وبأن أمامه العمر كله، بل وتمثل أن ليلة الحب هذه، لو أتت، لكانت مرحلة من المراحل،اللانهائية التي اعتاد أن ينشدها وأن يهدف إليها سعيه.. لسوف تكون بينهما أيام وليال، ربما، ولكن الأمر لن ينتهي أبدا. وفي الوقت ذاته، كان يعصف به الوله إليها.

## الفصل العاشر

كانت السيدة "**فان دن بيش**" تنحدر إلى الشيخوخة. ولما كانت حتى ذلك الحين -بفضل ما أوتيت من حسن ومن "موهبة"، كما قد يقال في وصف حياتها على أقل تقدير حتى تاريخ اقترانها الذي كان ميئوسا منه بـ"**جيروم فان دن بيش**" -لما كانت تجمعها الألفة طيلة ذلك العهد بمعشر من الأصدقاء نريد بينهم عدد الرجال على عدد النساء، فقد تبينت- مع قدوم الشيخوخة- وحشة تغلبها على أمرها، وتدفعها إلي التعلق بأول طارق أو طارقة!.. وقد وجدت في "**بول**" خير مؤنس، نتيجة لما كان لهما من صلات بنفس العملاء. وظل مسكن شارع "**كليبر**" مقلوبا رأسا على عقب، وأصبح على "**بول**" أن تلم به كل يوم تقريبا لتعمل في تنسيقه، فكانت السيدة "**فان دن بيش**" تلتمس جميع الذرائع لتستبقيها. وفوق ذلك، كانت "**بول**" هذه -بالرغم مما يلوح عليها من شرود الذهن- تبدو وثيقة الصداقة بـ"**سيمون**".. وعبثا حاولت السيدة "**فان دن بيش**" أن تقف على أية إشارة تدلها على تواطؤ بينهما وطيد، بيد أنها لم تكن تستطيع أن تني عن رميها بغمزات ولمزات راحت تنزلق على "**بول**" انزلاقا، ولكنها كانت تثير ثائرة "**سيمون**" وتخرجه عن طوره! وهكذا رأته ذات مساء ممتقع الوجه حائل الملامح، يتصدى لها ويهددها -وهي أمه التي ولدته!- بأغلظ الوعيد إذا هي "أفسدت" كل شيء!

– أفسد ماذا؟ هلا خليت سبيلي؟ هل أنت تضاجعها أم لا؟

– سبق أن قلت لك لا.

– فما بالك إذن؟ إن لم تكن هي تفكر في ذلك، فإني أدفعها إلى التفكير. ولك أن تحمد هذا. أنها قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها.. إنك تقتادها إلى حفلات الموسيقى والمعارض، والله يعلم إلى أين أيضا.. أفتظن أن هذا يمتعها؟ أيها الأبله، إنك لا تفهم!

ولكن "**سيمون**" كان قد خرج. وكان قد آب إلى باريس منذ ثلاثة أسابيع، مشوقا يستمد الحياة من وحي "**بول**" ويعيش من أجل "**بول**".. ينعم بالساعات القليلة التي كانت تمنحه إياها أحيانا أثناء النهار، ولا يفارقها إلا في اللحظة الأخيرة، بل ويظل

ممسكا بيدها بعد انقضاء اللحظة الاخيرة، كالابطال العاطفيين **الذين طالما سخر** منهم! ولذلك ارتاع يوم قررت أمه –بمناسبة انتهائها من تنسيق قاعة الاستقبال– **ان تقيم** مأدبة عشاء وتدعو إليها "**بـول**". فلقد أضافت أنها سوف تدعو كذلك "**روجيـه**"، رفـيق "**بول**" الرسمي، وعشرة أشخاص آخرين.

وقـبل "**روجيـه**" الدعوة. فلقد كان يريد أن يرى عن كثب هذا الفتى الغرير الذي مضى يتبع "**بـول**" في كل مكان، والذي طفقت تتحدث عنه في عطف كان يطمئنه أكثر من أي تحفظ. وكان فوق ذلك يشعر بوخز الندم إزاء "**بول**" لأنه اهملها منذ شهر. على أنه كـان في حبـائل "**ميـزي**"، مسحورا ببلاهتها، وبجسمها، وبمشاهد شجارها المروع معه، وبغيرتها المتغلغلة، وبما طرأ أخيرا عليها من هيام به، باتت تؤججه وتنفثه في وجهه كل يوم بأساليب من التهتك والمجون كانت تخلبه. كان يشعر بأنه يعيش في حر "حمام تركي"، ويتعلل من خلال وعيه المسلوب بأن ذلك هو آخر هوى فتاك يخوضه في حياته، فيستسلم، ويلغي موعد الليلة مع "**بـول**" –التي اعتادت أن تقول، بصوتها المستوي: "حسن جدا، يا حبيبي، إلى غد"– قبل أن يعود إلى المخدع المبتذل الذي تقبع فيه "**ميزي**"، لتقسم له، ملتاعة باكية، إنها لتضحي بمستقبلها من أجله إذا أبدى رغبته في ذلك!.. وكان يراقب نفسه مستطلعا إلى أي مدى عساه أن يتحمل سفاهة هذه العلاقة، ثم يطوقها بذراعيه، فتأخذ في اللغو، ويغترف مما تهمهم به من عبارات –نصفها غباء ونصفها بذاءة– اهتياجا حسيا قل ما تذوق مثله. إذن فـ"**سيـمون**" هـذا الذي أقبل يؤانس "**بول**"، بكل تواضع واحتشام، إنما يؤدي له خدمة تريحه، فبمجرد أن يفرغ من صلته بـ"**ميزي**"، سوف يرد الأمور إلى نصابها، ثم إنه سوف يتزوج "**بـول**". ولم يكن واثقا بشيء، بل ولا بنفسه، وإنما الشيء الوحيد الذي وثق به دائما كان ما تضمره له "**بول**" من حب راسخ وكذلك –منذ بضع سنوات– ما تأصل فيه من "التعلق" بها.

*****

ووصل بعد موعد العشاء بقليل. وما كاد يجيل بصره حتى تحقق من إنها مأدبة من ذلك الطراز الذي يشعر فيه بالسآمة المميتة. وكثيرا ما كانت "**بـول**" تلومه على نفوره من الاجتماعيات، وقد كان **في الواقع لا يسعى** إلى لقاء أحد من الناس –خارج نطاق عمله– إلا لغرض معين محدد، لو ليتحدث، كما هو الحال مع "**بول**" ومع صديق واحد آخر. كان يعيش منفردا، ولا يطيق فئة خاصة من المنتديات تعج بها باريس، فئة كانت توحي إليه بالرغبة في أن يظهر الجفاء والصفاقة، أو أن ينصرف!

وكان في الحفلة نفر من صفوة القوم، من الشخصيات البارزة في بعض الأوساط، أو التي اشتهرت على صفحات الجرائد، وهم قطعا –علاوة على ذلك– يحسنون المجاملة، ويمكن للمرء أن يتكلم معهم عن المسرح أثناء العشاء، أو عن السينما، أو –وتلك هي الطامة الكبرى– عن الحب والعلاقات بين الرجال والنساء، فإنه الموضوع الذي كان يخشاه دون سائر الموضوعات، إذ كان يعتقد أنه غير ذي دراية به، أو إنه على أقل تقدير يعيا عن صياغة ما يدريه عنه في عبارات مفيدة.

وحيا الجميع وعليه مخايل الصلف، وفي انتصاب قامته الطويلة شيء من الصلابة، وهو يحس –احساسا يلازمه كلما وصل إلى مكان– بأن حضوره قد سبب هبوب تيار من الهواء غير مناسب. والحق أن هذا الاحساس كان صادقا إلى حد بعيد، فقد كان محضره في ندوة من الندوات مدعاة للتشتت، إذ يغلب عليه –لأول وهلة– مظهر من لا يستطيع حوار أن يضمه ولا تستطيع حلقة أن تشمله، ومن هنا كان –بالنسبة لكثير من النساء– رجلا جذابا. وكانت "**بـول**" ترتدي الثوب الذي يحبه، ثوبا أسود، يكشف من نحرها أقصى مما تكشف ثيابها الأخرى، فانحنى نحوها يبتسم شاكرا لها ما كانت عليه، أي تجليها له وحده بهذه الطلعة التي حجبت عنه سواها في ذلك المكان. وأغمضت هي عينيها برهة تتمنى مستيئسة لو يأخذها بين ذراعيه. وجلس بجوارها، وإذ ذاك فـقط رأى "**سيـمون**" جامدا، فظن أنه لابد يتألم من وجوده، ونزع في انفعال غريزي ذراعه التي كان قد مدها خلف "**بـول**". وهنا تلفتت هي، وران فجأة، وسط الحديث العام المتصل، صمت ثلاثي متحفز من ناحيتين، لم يقطعه الا تحرك "**سيمون**" إذ انحنى على "**بول**" يشعل لها سيجارة. ولبث "**روجيه**" ينظر إليهما، ينظر إلى قامة "**سيـمون**" الطويلة، وإلى هذه الصفحة الجانبية من وجهه الجاد، الدقيق، الناعم، مائلا نحـــو "**بـــول**" التي استوت بمحياها الوقور، فانتابته ضحكة مستهترة.. لقد كانا متحفظين، رقيقين، مهذبين. كان الفتى يقدم لها اللهب وكانت هي تأبى عليه

جسدها، كل ذلك في أدب جم مرهف، وهما يقولان: "شكرا، **لا، شكرا**" أما هو فقد كان من جنس آخر، كنت تنتظره بغى بذيئة بأحط أنواع اللذة، وينتظره بعدها ليل باريس العامر بالمصادفات، ثم ينتظره -عند الفجر- عمل مرهق، شبه يدوي، مع رجال مثله قد أضناهم التعب، وسبق له أن زاول مهنتهم. وفي اللحظة نفسها، قالت "**بول**": "شكرا" بصوتها الوديع، فلم يسعه إلا أن يأخذ يدها، ويشد عليها، حتى تثوب إليه. لقد كان يحبها. أجل، إن في مقدور هذا الفتى الصغير أن يستدرجها إلى حفلات الموسيقى أو إلى المتاحف، ولكنه لن يلمسها. ونهض فتناول شرابا مما قدم على صينية، وشربه جرعة واحدة، وأحس بشيء من الانتعاش.

وجرى العشاء على النحو الذي كان قد توقعه. فقد صدرت عنه بضع همهمات، وحاول أن يتحدث، لكنه لم يفق إلا في آخر المأدبة عندما سألته السيدة "**فان دن بيش**" -وهي بادية اللهفة على أن تنبئه بالجواب!- هل هو يعلم من الذي يضاجع "فلانة"؟ فأجاب بأن ذلك لا يعنيه أكثر مما يعنيه أن يعرف ماذا يأكل.. وإن مثل هذه الأنباء قد أصبحت لا تستأثر بأية أهمية في نظره، وإن انشغالنا باستطلاع ما تضمه موائد الناس، خير من انشغالنا باستطلاع من يضمون في فراشهم، فهو افتراء أهون خطرا عليهم. وأنشأت "**بول**" تضحك، لأنه بذلك قد أودى بكل ما دار أثناء العشاء من حديث، ولم يستطع "**سيمون**" أن يمتنع عن الضحك مثلها. وكان "**روجيه**" قد أفرط في الشراب، ووقف يترنح قليلا حينما غادر المائدة، فلم يلمح المقعد الذي أخذت تطرقه بيدها السيدة "**فان دن بيش**"، وهي تتلطف في إغرائه بالجلوس عليه إلى جوارها. فقال له "**سيمون**":

- إن أمي تدعوك.

وكانا واقفين وجها لوجه. وراح "**روجيه**" يتفرس فيه ويعشو إلى ملامحه، باحثا بينها عن ذقن طري أو عن فم خانع، دون أن يجد شيئا من ذلك، فتعكر مزاجه وقال:

- ولابد أن "**بول**" تدعوك.

فأجاب "**سيمون**":

- إني ذاهب إليها.

وأدار عقبيه، فقبض "**روجيه**" على مرفقه يستوقفه، وقد هاج غضبه فجأة. ونظر إليه الفتى بادي الدهشة.

- انتظر.. إني أريد أن أسألك شيئا.

وتفحص كل منهما صاحبه، وهو مدرك أنه ليس لديه ما يقوله بعد.. غير أن "**روجيه**" كان يعجب من الحركة التي بدرت منه، والتي ازدهى بها "**سيمون**"، بل بلغ من طربه أن ابتسم. ففهم "**روجيه**"، وخلى سبيله قائلا:

- لقد أردت أن أسألك سيجارا".

- سآتيك به فورا.

وتبعه "**روجيه**" بعينيه. ثم مضى صوب "**بول**" التي كانت تتحدث إلى زمرة من الحاضرين، فجذبها من ذراعها، وتبعته، لكنها استجوبته على التو:

- ماذا قلت لـ"**سيمون**"؟

- سألته سيجارا. ماذا كنت تخشين؟

قالت، وقد اطمأنت: "لا أدري. كان يبدو عليك الغضب.

- ولماذا عساني أغضب؟ إنه في الثانية عشرة من عمره. أتظنينني أغار منه؟

- لا.

وغضت طرفها.

- لو صح لي أن أغار، لكان جارك الذي إلى يسارك أحق بغيرتي. فإنه -على الأقل- رجل.

وتساءلت برهة إلى من كان يشير بهذا القول، ولما فطنت إليه، لم تستطع أن تكتم إبتسامتها، إنها لم تنتبه لمجرد وجود ذلك الشخص. فلقد ظلت المائدة طوال العشاء -في رأيها- تستضيء بـ"**سيمون**"، الذي كانت عيناه كالمنارة تقبلان بانتظام لتسطعا على وجهها كل دقيقتين، وتلتمسا لحظها فتتعلقا به. وكانت تمنحه نظرتها أحيانا، فإذا هو يبتسم ابتسامة ملؤها الحنان والقلق، فلا تستطيع إلا أن تبادله إياها. إنه كان يفوق جارها الجالس إلى يسارها حسنا، ويفوقه حيوية بمراحل لا يحدها حد. ولقد أيقنت أن "**روجيه**" لا دراية له بشيء من ذلك. وها هو ذا "**سيمون**" يدنو ويقدم علبة السيجار لـ"**روجيه**"، فيقول هذا وهو يتخير منها سيجارا، في كثير من الحيطة:

- شكرا. إنك لا تعرف بعد ما يمتاز به السيجار الجيد. تلك لذة من اللذات التي

يختص بها من كانوا في سني.

فاجابه "**سيمون**" قائلا:

– إني أدعها لك.. فإني لأنفر من هذا.

– "**بول**"، أظن أن الدخان لا يضايقك؟

وأضاف وهو يلتفت إلى "**سيمون**":

– وعلى كل حال، نحن عائدان عما قليل إلى البيت، إذ ينبغي علي أن أستيقظ مبكرا.

ولم يسجل "**سيمون**" لفظة نحن التي أصاب بها "**روجيه**" مرماه، وإنما دار في خاطره معنى ذلك أنه سينزلها عند الباب الخارجي لدارها ثم يمضي لوصال تلك الصغيرة الفاجرة.. وإنني أنا سأمكث هنا، محروما منها. وتطلع إلى "**بول**"، وخيل إليه أنه يقرأ على وجهها نفس الفكرة، فبربر قائلا:

– إذا لم تكن "**بول**" متعبة... فإني أستطيع أن أوصلها فيما بعد.

واستدارا نحوها معا. فابتسمت لـ"**سيمون**"، وقررت أنها تفضل العودة، وأن الوقت قد تقدم.

وفي السيارة، لم ينطقا بكلمة. كانت "**بول**" تنتظر. فقد انتزعها "**روجيه**" من سهرة كانت تمتعها، وكان عليه أن يقدم إليها تعليلا لتصرفه، أو اعتذارا. وأمام بابها، وقف بالسيارة، وترك محركها دائرا.. وفهمت هي أنه لم يكن لديه ما يقوله، وأنه لن يصعد معها، وأن كل الذي حدث لم يكن من ناحيته إلا رد فعل صدر عن مالك حريص!.. ونزلت، وتمتمت "مساء الخير"، ثم عبرت الشارع. وانطلق "**روجيه**" في الحال، وهو حاقد على نفسه.

ولكن أمام بيتها، كانت عربة "**سيمون**"، و"**سيمون**" بداخلها. وأهاب بها فأقبلت عليه، مندهشة:

– كيف أتيت إلى هنا؟ لابد أنك سقت سيارتك كالمجنون. وسهرة أمك؟

فقال مبتهلا إليها: اجلسي لحظة.

وتهامسا تحت جنح الليل وكأنهما يخشيان أن يسمعهما سامع. ودلفت إلى داخل العربة الصغيرة في براعة، ولاحظت أنها اعتادت ذلك.. وأنها اعتادت أيضا أن تجد هذا الوجه الأليف، المطمئن، ملتفتا صوبها، هذا الوجه الذي كان نور المصباح يشطره شطرين.

قال: "لعلك لم تتضايقي أشد الضيق...

– كلا.. بل إنني..

وكان دانيا منها جدا، أدنى إليها مما ينبغي، هكذا اعتقدت. ولم تكن تلك الساعة المتأخرة من الليل وقتا مناسبا للحديث، ولا كان له أن يتعقبها. فقد كان يمكن لـ"**روجيه**" أن يراه.. كل هذا كان جنونا.. وقبلت "**سيمون**".

وهبت ريح الشتاء تجوب الشوارع، ونفذت إلى السيارة المفتوحة، وعبثت بشعرهما فالقته فيما بينهما.. وغمر "**سيمون**" وجهها بالقبلات، وهي تستنشق، غائبة عن وعيها، رائحة هذا الفتى،

وأنفاسه اللاهثة، وعبير الليل الرطيب. ثم تركته دون أن تنطق بكلمة.

وفي الفجر فتحت عينيها نصف صاحية، ورأت وكأنها في حلم تلك الكتلة السوداء من شعر "**سيمون**" الكث وقد خلطته بشعرها ريح الليل العاتية فأقامت بين وجهيهما دائما حاجزا حريريا، وظنت أنها مازالت تحس بفمه الدافئ الحار يخترقها. واستأنفت نومها وهي تبتسم.

## الفصل الحادي عشر

لقد انقضت الآن عشرة أيام منذ رآها للمرة الأخيرة. ففي النهار الذي تلا تلك السهرة الجنونية، حيث جاشت العاطفة، وحيث قبلته، تلقى منها كلمة تفرض عليه فيها ألا يسعى إلى لقائها بعد ذلك. "إنني خليقة بأن أسبب لك الألم، وإني أجد نحوك من الحنان أكثر مما يجوز. ولم يفهم إنها كانت أقل خوفا عليه منها على نفسها، وإنما آمن بشفقتها ولم يغضب، وراح ببساطة يلتمس وسيلة أو فكرة تتيح له أن يواجه الحياة بدونها. وما كان يخطر له أن تحفظات من هذا الطراز: "إنني خليقة بأن أسبب لك من الألم ما لا تطيق، وأن هذا ضرب من التهور" إلخ، ليست إلا الأقواس التي ترقم قصة سبقت روايتها توا، أو قصة ستأتي روايتها توا، ولكنها لا توجب القنوط على كل حال، وكانت "**بول**" تجهل ذلك أيضا. فلقد اعتراها الخوف، وباتت تنتظر -على غير وعي منها- أن يسعى هو إليها وأن يحملها على أن تنساق للحب. وكانت قد ضاقت بأمرها ذرعا، كانت قد سئمت تتابع أيام الشتاء المتشابهة، ومجت استعراض تلك الشوارع المحددة استعراضا أبديا، تلك الشوارع التي كانت تؤدي بها وحيدة من مسكنها إلى عملها، ومقتت جهاز التليفون، هذا الخائن الذي يخلف لها الندم كلما أصغت إليه، من فرط ما كان صوت "**روجيه**" الذي ينقله إليها صوتا غائبا متهربا، أو متورطا ينوء بالعار، كما كلت من الحنين إلي صيف طويل خابت جهودها في استعادته.. وأفضى بها هذا كله إلى حياة سلبية عزلاء تقتضي بأي ثمن من الأثمان أن يحدث شيء ما.

ومضى "**سيمون**" يعمل.. وأصبح مواظبا، مثابرا، صموتا، وكان من وقت إلى آخر يرفع رأسه، فيسلط على السيدة "**أليس**" نظرة شاردة، ويجيل على شفتيه أصبعا حائرا.. إنه يتمثل "**بول**"، في تلك الليلة الأخيرة، وكيف -في ذلك الأسلوب الفجائي الذي تغلب عليه السيطرة- وضعت فمها على فمه، وكيف استلقى رأسها ثم ضمت يداها في رفق قبالة وجهها وجه "**سيمون**"، والريح.. وتتأذى السيدة "**أليس**" من تلك النظرة، فتتكلف السعال، ويبتسم هو قليلا. لقد ازورت "**بول**" ساخطة، هذا كل ما كان. وهو لم يحاول أن يتبعها على أثر ذلك، فهل تراه قد أخطأ؟ وجعل يمحص في ذاكرته مرارا وتكرارا أدنى وقائع الأسابيع الماضية: نزهتهما الأخيرة في السيارة، وزيارتهما لذلك المعرض الممل الذي فرا منه فرارا، ومأدبة العشاء الملعونة التي أقامتها أمه.. فأقبلت كل لمحة يستعيدها، كل صورة، وكل فكرة يفترضها، بهم يضاعف من شقائه. على أن الأيام كانت تمر، فهو يكسب بذلك وقتا، أو لعله يخسر حياته، إنه لم يعد يدري أين أصبح مكانه مما ألم به..

وذات مساء هبط سلما مظلما بصحبة صديق له، ووجد نفسه في ملهى ليلي صغير لم يكن يعرفه. وشربا كثيرا، وطلبا مزيدا من الشراب، وألح عليهما الحزن من جديد. ثم طلعت امرأة زنجية فغنت، زنجية ذات فم عظيم، وردي، فتحت أبواب آلاف الشجون، واججت نيران أسى عاطفي انزلقا إليه معا وانغمرا فيه. وقال صديق "**سيمون**":

- إني لأهب سنتين من عمري مقابل أن أحب أحدا.

فقال "**سيمون**":

- وأما أنا، فإني أحب، ولن تعلم هي أبدا أنني كنت أحبها. أبدا!

ورفض أن يدلي بأي تعليق، ولكنه في الوقت ذاته كان يتصور أن شيئا لم يضع، وأن هذا مستحيل.. كل هذا الخضم الزاخر في نفسه من أجل لا شيء! ورحبا بالمطربة لتشرب معهما، وكانت من نساء حي "**بيجال**"، بيد أنها استأنفت الغناء فانشدت كما لو كانت قادمة من "**أورليان الجديدة**"، وأوحت إلى "**سيمون**" المسلوب الخاطر حياة هنيئة حانية، آهلة بأطياف مقبلة وبأيد مبسوطة. وبات يصغي إليها، وحده، ثم عاد إلى بيته في الفجر، وقد صحا من نشوته.

*****

في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي، كان "**سيمون**" ينتظر "**بول**" أمام المتجر الذي تعمل فيه. وكان المطر ينهمر، فدس في جيبيه يدين أمسى يلوم نفسه على ارتعاشهما. لقد كان يحس إحساسا غريبا بالفراغ والتبلد. وهجس في صدره: "لعلي لم أعد صالحا في نظرها إلا لاحتمال العذاب." وعبس وجهه مشمئزا.

وفي الساعة السادسة والنصف، خرجت "**بول**". كانت ترتدي حلة داكنة "**تايور**"، وتلتفع بوشاح رمادي كلون عينيها، وكانت بادية الإعياء. وخطا نحوها خطوة، فابتسمت له، واجتاحه فيض مباغت من مشاعر الامتلاء والطمأنينة أغمض في غمرته عينيه. لقد كان يحبها. ومهما لحق به من جرائها، فإنه ليس من الخاسرين. وأبصرت

"**بـــول**" هذا الوجه الاعمى، وهاتين اليدين الممدودتين، **فتوقفت. أجل، لقد افتقده** طوال هذه الأيام العشرة. وكانت تجد أن محضره المتصل، وإعجابه، **وعناده، قد** خلقت لديها ما يشبه عادة شعورية مرهفة لم يكن هناك ما يبرر لها أن تفر منها. على أن الوجه الذي كان يقدمه إليها لم يكن ذا صلة قط بمدارج العادة، ولا بالراحة النفسية الملائمة لامرأة في التاسعة والثلاثين من العمر. لقد كان غير ذلك. وتوسمت فجأة في إفريز الشارع القاتم، وفي السابلة والسيارات من حولهما، إطارا صيغ على نمط معلوم، جامد الزخارف، لا ينتمي إلى أي عهد، وظل كل منهما ينظر إلى الآخر، على قيد مترين بينهما، وقبل أن تستنيمها واقعية الشارع الصاخبة الكالحة، وهي مازالت متربصة يقظة، على أقصى حدود وعيها الخاص، خطا "**سيمون**" خطوة وأخذها بين ذراعيه.

ولبث ممسكا بها إزاءه، لا يضمها بشدة، معلق الأنفاس، يهيمن عليه هدوء كبير. لقد أسند خده على شعرها، وراح يرنو أمامه إلى لافتة مكتبة تدعى "**كنوز الزمـان**"، وهو يتساءل في غير جلاء كم عساها تحوي من درر –هذه المكتبة– وكم عساها تحوى من نفايات، وفي الوقت ذاته، كان يعجب من أنه يلقى علي نفسه هذا السؤال العابث في تلك اللحظة بعينها، لقد كان يحس احساس من توصل أخيرا إلى حل مسألة.

قالت "**بول**":

– "**سيمون**"، كم مضى عليك من الوقت هنا؟ إن ثيابك لابد قد تشربت بالمطر.

وكانت تستنشق الرائحة المنبعثة من صوف سترته الخشن، ومن عنقه، وهي لا تود أن تتحرك. إنها تستروح في عودته تعزية لم تكن تتوقعها، أزاحت عن صدرها ما كان يثقله، وكأنها بدأت تشعر بالنجاة من هلاك.

قال "**سيمون**":

– أتعلمين؟... أنا لم أستطع مطلقا أن أعيش بدونك، كنت أتخبط في الفراغ.. بل ولم تدركني السآمة، فقد كنت محروما من نفسي... وأنت؟

قالت "**بول**":

– أنا؟ أوه! إنك تعلم أن باريس لا تكثر بها دواعي البهجة في الوقت الحاضر. (كانت تحاول أن تعيد الحديث إلى مجرى عادي). قد شاهدت مجموعة جديدة، واضطربت اضطراب أصحاب الأعمال، وقابلت اثنين من الأمريكيين. وهناك مشروع بأن أذهب إلى نيويورك..

وكانت في الآونة نفسها ترى أنه لا جدوى من حديث بهذه اللهجة بين ذراعي هذا الفتى الواقف تحت المطر على نحو ما يظل عاشقان متيمان، ولكنها لم تكن تستطيع حراكا. وكان فـم "**سيمون**" يحط في رقة على جبينها، وشعرها، أو وجنتها، يرقم بذلك كل جملة تفوه بها. ثم أمسكت عن الكلام، وزادت قليلا من استناد جبهتها على كتفه.

وأتاها من فوقها صوت "**سيمون**" يقول:

– هل أنت راغبة في السفر إلى نيويورك؟

وبينما كان يتكلم، كانت تحس بفكه يضطرب على رأسها، مما كان يدفعها إلى أن تضحك مثل تلميذة صغيرة.

– إن الولايات المتحدة خبرة لابد ممتعة. ألا تظن ذلك؟ إني لم أذهب إلى هناك من قبل.

فقال "**سيمون**":

– ولا أنا ذهبت إلى هناك. إن أمي تجد تلك البلاد فظيعة ولكنها كانت دائما تكره السفر.

وكان بوسعه أن يكلمها ساعات طوالا عن أمه، وعن فن السفر، وعن أمريكا، وروسيا. كان يود أن يحدثها مائة حديث مطروق، وأن يلقي عليها مائة خطاب هادئ، دون أن يتكلف جهدا. فهو لم يعد يرمي إلى أن يثير عجبها أو أن يخلب لبها. لقد طاب له مكانه منها، وإن كان يجد الثقة بنفسه ويشعر بأنه هش في آن واحد. ولقد كان عليه أن يصحبها إلى بيتها حتي يستطيع أن يقبلها حق التقبيل، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يخليها من بين يديه. وقالت "**بول**":

– إنني في حاجة إلى التفكير.

ولم تكن تدري هل هي تعنيه هو بذلك أم تعني مشروع رحلتها. إنها كانت تتهيب أيضا أن ترفع رأسها فترى أمام وجهها هذا الوجه الذي مازال يافعا، وتتهيب أن تجد نفسها مرة أخرى.. أن تجد "**بـول**" الرزينة الحازمة... لقد كانت تخشى أن تتحرى أمرها، وأن يقاضيها ضميرها!

وقالت بصوت خافت: "**سيمون**".

فانحنى، وقبلها قبلة خفيفة على شفتيها. واحتفظ كل منهما **بعينيه مفتوحتين**، لا يبصر بهما من صاحبه إلا بقعة عظيمة متلالئة، تملؤها أشعة منعكسة **وظلال**، حدقة قد طغى اتساعها، سائلة، وكأنها مذعورة.

*****

وبعد يومين، تناولا العشاء معا. وما كادت "**بـول**" تفوه ببضع جمل حتى أدرك "**سيمون**" العبرة التي حوتها -بالنسبة إليها- تلك الأيام العشرة، ألا وهي عدم احتفال "**روجيه**" بها.. وتهكمه على "**سيمون**".. ووحدتها.. ولا شك أن "**بول**" كانت تأمل أن تستغل تلك الهدنة من جانب "**سيمون**" لاسترداد "**روجيه**" أو لاستعادة زياراته على أقل تقدير، وجمع ما تفرق من شملهما. ولكنها اصطدمت بطفل غاضب محتد. لقد بذلت جهودا ما كان أروعها في تواضعها! فقد راحت تعد له العشاء الذي يفضله، وبالإضافة إلى ذلك تلبس الثوب الذي يحبه، وتحدثه عن الموضوعات التي تعجبه، وتطبق جميع تلك النصائح التي تنشرها المجلات النسائية، والتي تبدو كوصفات مضحكة، بل كوسائل حقيرة أحط من الدناءة، وإنما هي أشد تأثيرا في القلوب من كل دعاء، إذا قنعت باتباعها امرأة ذكية.. لكن هذه الحيل لم تفلح في شيءولم تكن "**بول**" تشعر بالهوان إذ تلجأ إلى استخدامها، بل ولم تكن تشعر بالخزى عندما تستبدل بإضاءة فنية لركن هادئ، أو بفخذ من الضأن الطري تقدمه له على المائدة، تلك العبارات التي كانت تحترق بها شفتاها: "**روجيه**"، إنني شقية بجريرتك.. "**روجيه**"، ينبغي أن يتغير هذا الحال!... لم تكن تجد إذادققت النظر في تصرفها، أنها قد سلكت هذا المسلك بدافع وراثي يكمن في كل امرأة باعتبارها ربة بيت، بل إنها لم تصدر في ذلك عن إذعان مرير.. كلا، وإنما عن لون من الشهوة القاسية - "السادية" - يغريها بتعذيب نفسيهما، وبالتشفي مما آل إليه أمرهما معا.. كما لو كان على أحدهما -هو أو هي- أن ينهض فجأة ويقول: "كفانا هذا!". ولقد ظلت تنتظر أن ينطلق منها هذا الرد، في تلهف، يكاد يعادل تلهفها على أن يبدر الرد من "**روجيه**"ولكن بلا جدوى. فلعل شيئا ما قد مات.

ولما كانت قد أنفقت عشرة أيام على هذا النحو، في عناء التدبير والتقدير والآمال الكاذبة، فما كان في طاقتها إلا أن تنهزم أمام "**سيمون**"... "**سيمون**" الذي يقول: "إنني سعيد، **وإني احبك دون ان تكون عبارته سقيمة، سخيفة**.. "**سيمون**" الذي يتلجلج إذا خاطبها من بعيد، في التليفون.. وما أيسر أن يحب المرء -كما قال لها "**سيمون**" وهو يتحدث عن نفسه- ولكن المهم هو أن يكون محبوبا أيضا.. ولقد بدا لها ذلك الرأي أصيلا رائعا، غير أنها -على باب هذه القصة التي اندمجت فيها- كانت تندهش من أنها بدلا من أن تجد الاهتياج والاندفاع اللذين مهدا لعلاقة كعلاقتها بـ"**روجيه**"، لا تجد هنا إلا إعياء عظيما رقيقا يسري في أوصالها، ويؤثر حتى على خطاها!.. وكان كل من يعرفها ينصحها بأن تغير الهواء، وأما هي فكانت ترى في أسى أنها سوف تغير بكل بساطة عشيقها، إذ تستبدل به آخر أقل ازعاجا، وأوفر أدبا باريسيا، وما أكثر هذا النوع.. ثم تشيح عن صورتها التي كانت تعكسها أمامها المرآة، أو تغطيها بطبقة من المعجون المرطب. على أنها في ذلك المساء، عندما دق "**سيمون**" الجرس، وأبصرت رباط عنقه الداكن، وعينيه القلقتين، والتهلل العميق الذي أشرق به شخصه كله، واضطرابه أيضا، وكأنه امرؤ دللته الحياة ومازالت تغدق عليه، ودت لو تشاطره سعادته.. السعادة التي تهبه إياها: "ها هو ذا جسمي، دفئي، حناني.. إنها لا تفيدني قط، ولكنها ربما استعادت بين يديك شيئا من طعمها المفقود.. ولقد بات تلك الليلة على كتفها.

وراحت تتصور في أي لهجة سيروي الناس -أصدقاؤها- هذا النبأ: "هل أتاك حديث "**بول**"؟.. وفوق شعورها بالخوف من القيل والقال، بل وفوق شعورها بالخوف من تفاوت السن بينها وبين "**سيمون**" -وهو الشيء الذي كانت تعلم أن الألسنة سوف تلوكه بوجه خاص- كان يطغى عليها الخجل.. الخجل إذ تتمثل المرح الذي سوف يزف الناس به تلك البشرى، والحمية التي سوف ينسبونها إليها: هذا التفتن في الاستمتاع بالحياة وبالشبان!.. على حين كانت هي لا تحس إلا بأنها عجوز كليلة تتلمس بعض العزاء، وأمضها التفكير في قدرة الناس على أن يكونوا إزاءها في آن واحد قساة ومداهنين، وهو السلوك الذي شهدته مائة مرة بصدد غيرها من الأشخاص. لقد قيل عنها: "**بول**" هذه المسكينة لأن "**روجيه**" كان يخونها، وربما قيل عنها: هذه المجنونة المستقلة.. أنها عندما فارقت زوجا شابا وسيما مملا قد أثارت لوم اللائمين ورثاء المشفقين، ولكن أحدا لم يضمر لها يوما هذا الخليط من الاحتقار والحسد الذي أوشكت أن تثيره في هذه المرأة.

# الفصل الثاني عشر

على نقيض ما كانت تعتقد "**بول**" لم يهجع "**سيمون**" طيلة ليلتهما الأولى، وإنما اقتصر على ضمها إليه، وقد وضع يده على ثنية خفيفة كانت في خصرها، وظل جامدا، يصغي إلى تنفسها المنتظم ويقيس عليه تنفسه. فقد كانت فكرة غامضة تسري في خاطره: "ينبغي أن يكون المرء متيما جدا أو زاهدا جدا حتى يتظاهر بالنوم"... وأما هو، الذي لم يعهد من قبل إلا الحالة الثانية، فكان يجد نفسه -إذ يرعى نعاس "**بول**"- مثل استمتاع الكاهنات العفيفات بالفخر، والمسؤولية، وهن يرعين النار المقدسة في هيكل "فستا".. وهكذا قضيا ليلتهما جنبا إلى جنب، يسهر كل منهما على ما يتكلف الآخر من وسن، منتبهين، حانيين، لا يجرؤان على الحراك...

كان "**سيمون**" سعيدا. وكان يشعر بأنه أشد مسؤولية إزاء "**بول**" -وهي التي تكبره مع ذلك بخمسة عشر عاما- مما لو كان إزاء فتاة عذراء في السادسة عشرة من عمرها، إنه وإن لم يزل مسحورا بما تمن به "**بول**" عليه، وإن مضى يستمد -للمرة الأولى في حياته- من تلك الضمة إحساسا بنوال هدية موهوبة، فقد بدا له أن يظل ساهرا، ثابت البصر، وكأنه يريد أن يحميها سلفا مما قد يلحقه بها يوميا من شر!.. لقد بات متيقظا، ينهض بالحراسة، ليقيها من ألوان جبنه هو، من مهازله الماضية، ومخاوفه، وما كان ينتابه من السآمة والفتور. إنه سوف يسعدها، وسوف يكون سعيدا.. وإنه ليكتشف في دهشة أنه لم يقسم لنفسه مطلقا مثل هذه الأيمان أثناء أعظم فرص الغرام التي اغتنمها في مغامراته السابقة. وعلى هذا النحو، ألمت بهما في الصباح بضع نوبات من الصحو العابر، فكان كل منهما -بعد الآخر- يتصنع التثاؤب والتمطي.. التمطي الهادئ.. ولكنهما حرصا على ألا يفعلا قط ذلك معا.. فإذا تقلب "**سيمون**" أو اتكأ على أحد مرفقيه، كانت "**بول**" تغوص من تلقائها تحت الأغطية، خوفا من نظرته، نظرة الاتصال الأولى، وبالها من نظرة تافهة حاسمة!.. فإذا نفد صبرها فتحركت هي، كان "**سيمون**" -وهو مغمض العينين، ولو أنه مصيخ السمع، خشية أن يفقد نعيمه الليلي- يعمد إلى حبس أنفاسه. وأخيرا، فاجأته وهو ينظر إليها، وعيناه نصف مغمضتين، في بصيص خافت من نور النهار الطالع تخلل الستائر، فتجمدت وهي مستديرة نحوه. هناك أحست بأنها عجوز ودميمة، وأخذت تسدد إليه نظراتها حتى يراها في وضوح فلا يكون بينهما على الأقل ذلك الالتباس الذي ينجلي عنه الصبح للمفيق. وأما "**سيمون**"، وعيناه لاتزالان نصف مغمضتين، فقد ابتسم، وتمتم باسمها، ثم انزلق مقتربا منها.. فهمست: "**سيمون**"، وشدت عودها، محاولة من جديد جعل ليلتها نزوة. ووضع هو رأسه على قلبها، ولثم في رفق ثنية ذراعها، وكتفها، وخدها، وهو يضمها إليه. وقال: "لقد حلمت بك، ولن أحلم منذ اليوم إلا بك. وأطبقت ذراعيها عليه.

*****

وأراد "**سيمون**" أن يوصلها إلى مقر عملها، ذاكرا أنه على استعداد لأن ينزلها عند مفترق الطريق إذا كانت تفضل ذلك. فأجابت، في شيء من الأسى.، بأنه ليس عليها أن تؤدي لأحد حسابا، وسرت بينهما لحظة من الصمت. وكان "**سيمون**" هو الذي قطع هذا الصمت قائلا:

– إنك لا تخرجين قبل الساعة السادسة؟ هل تتناولين الغداء معي؟

فقالت:

– ليس لدي الوقت، سوف أتناول شطيرة هناك.

فقال شاكيا:

– وماذا سأفعل حتى الساعة السادسة؟

فنظرت إليه. وساورها القلق.. أتراها تستطيع أن تقول له إن التقاءهما في الساعة السادسة ليس فرضا إجباريا؟ إنها من ناحية أخرى تتمثله أمام الباب، متلهفا، داخل عربته الصغيرة، كل مساء، فتحمل إليها هذه الفكرة نفحة من السعادة.. إنسان في انتظارك كل مساء، إنسان لا يخاطبك في التليفون بلهجة فاترة في الساعة الثامنة، يوم يود ذلك!.. وابتسمت.

– ومن أنباك بأنني لست اليوم مدعوة إلى عشاء؟

وكان "**سيمون**" يزر أردان قميصه في عناء، فتوقف. وبعد برهة قال:

– لا شيء في الواقع يدريني.

قالها بصوت حيادي. لقد كان يفكر في "**روجيه**"، ولا غرو!.. إنه ما كان يفكر إلا

في "**روجيه**"، فقد كان يراه متاهبا لاسترداد متاعه، وكان خائفا. **ولكنها كانت** تعلم أن "**روجيه**" لايفكر فيها... فلتكن على الأقل كريمة! قالت:

– لست مدعوة إلي العشاء اليوم.. تعال أساعدك.

وكانت جالسة على السرير، فجثا على ركبتيه أمامها، مادا ذراعيه، وكان سواري قميصه أصفاد طوقت معصميه. وكان معصماه نحيلين أملسين، كمعصمي صبي يافع. وبرق فجاة في خاطر "**بول**"، وهي تثبت له أزراره،، أنها تمثل هذا المشهد للمرة الثانية. وقالت في نفسها "ياله من موقف مسرحي!، ولكنها أراحت خدها على شعر "**سيمون**"، وهي تضحك ضحكة صغيرة هانئة.

وقال "**سيمون**" في عناء:

– وماذا سافعل حتى الساعة السادسة؟

– لا أدري.. سوف تعمل.

قال: "لن أستطع.. إني في فيض من السعادة.

– ذلك لا يمنع المرء من العمل!

–بل إنه يمنع، بالنسبة لي.. على أني أعرف في الواقع ماذا سافعل. سوف أتنزه وأفكر فيك، ثم أتناول الغداء وحدي وأنا أفكر فيك، ثم أنتظر أن تحين الساعة السادسة. إنك لتعلمين أني لا أتمتع بأي صفة من صفات الشباب النشطاء.

– وماذا سيقول محاميك؟

– لا أدري. لماذا تريدينني أن أضيع وقتي في إعداد مستقبلي، مادام حاضري وحده هو الذي يعنيني.. ويرضيني؟

وقد أضاف هذه الكلمة الأخيرة في القاء تصاحبه تحية عريضة.

وهزت "**بول**" كتفيها. ولكن "**سيمون**" نفذ على وجه الدقة ما قاله، وكذلك فعل في الأيام التالية. فقد راح يجوب بسيارته أرجاء باريس، مبتسما للجميع، ويمر عشر مرات أمام متجر "**بول**" وهو لا يتجاوز سرعة عشرة كيلو مترات في الساعة.. أو كان يقرأ كتابا وقد أوقف سيارته أينما شاء، ثم يدع كتابه أحيانا ليلقي رأسه إلى الوراء، مغمضا عينيه. لقد كان يبدو عليه كأنه من أولئك المرضى الذين يمشون نياما، ولكنه سعيد في هيامه، وهذا ما زاد "**بول**" تاثرا وما جعلها ترق له وتعزه. إنها كانت تشعر شعور من يهب شيئا، وتعجب من أنها قد أصبحت **فجاة لا تكاد تستغني** عن شعورها ذاك.

وكان "**روجيه**" على سفر منذ عشرة أيام، في طقس بغيض، ينتقل من مادبة تجمع نفرا من رجال الأعمال إلى مادبة تجمع لفيفا آخر منهم، واتخذ إقليم الشمال في نظره صورة رمزية تتالف من طريق زلق لا نهاية له، ويحف به زخرف عام من المطاعم المتشابهة. وكان من حين إلى حين يخاطب باريس بالتليفون، فيطلب رقمين مرة واحدة ويصغي إلى شكاة "**ميزي مارسيل**" قبل –أو بعد– أن يبث "**بول**" شكواه. لقد كان يحس بهمود الهمة والعجز. وكانت حياته أشبه بهذا الإقليم الذي راح يجوبه.. وكان صوت "**بول**" يتبدل، فقد غدا يوافيه أشد قلقا وأبعد شقة، وإنه لفي شوق إلى لقائها.. إنه لم يسبق له قط أن استطاع قضاء خمسة عشر يوما نائيا عنها دون أن يفتقدها. ففي باريس، حيث كانت كما يعلم على استعداد لملاقاته، ودائما رهن إشارته، كان بوسعه أن يباعد بين لقاء ولقاء... أما وهو في "**ليل**" فان هذه المدينة كانت تضفي عليها إغراء أيامهما الأولى، أيام كانت حياته معلقة بأهداب حياتها وهو يخشى إذ ذاك أن ينالها، كما يخشى الآن أن يضيعها!.. وفي آخر أيام رحلته، أنبأها بعودته، فقطع الصمت حديثها لحظة ثم استانفت على الفور تقول: "ينبغي أن أراك" بلهجة حاسمة. ولم يسالها أي سؤال، وإنما ضرب لها موعدا في اليوم التالي.

ورجع إلى باريس أثناء الليل، ووجد نفسه أمام بيت "**بول**" في نحو الساعة الثانية صباحا. وللمرة الأولى، تردد في أن يصعد... فإنه لم يكن واثقا بانه سيجد ذلك الوجه الراضي، الذي ألف منه أن يلوذ بالهدوء رغم استفزازاته المباغتة... لقد كان خائفا. وانتظر عشر دقائق، ونفسه تضايقه، وهو يتذرع في مجادلتها بأسباب واهية: "إنها نائمة، إنها تسرف في العمل" إلخ.. ثم مضى. وأمام بيته، تردد أيضا... ثم استدار فجاة وقصد بيت "**ميزي**". وكانت نائمة، فمدت إليه وجها منتفخا، زاعمة له أنها كانت قد خرجت وسهرت طويلا مع منتجيها أولئك الذين لا مفر منهم.. وإنها لجد سعيدة، ولقد كانت على كل حال تحلم به قبل أن يدخل.. إلخ.. وخلع ثيابه، وسرعان ما استغرقه النوم بالرغم من نغزاتها. للمرة الأولى، لم يكن راغبا فيها!.. وعند الفجر انصاع آليا، وتلهى قليلا بحكاياتها، وقرر أن كل شيء كان على ما يرام. وقضى الصباح لديها، وفارقها قبل أن يحين موعده مع "**بول**" بعشر دقائق.

# الفصل الثالث عشر

قـالت "**بـول**" : "ينبغي أن أتكلم في "التليفون" .. إذا انتظرت إلى ما بعد الغداء، فات الأوان" .

ونـهـض "**روجيـه**" ليفسح لها السبيل عندما غادرت المائدة، فابتسمت له "**بـول**" ابتسامة الاعتذار الصغيرة التي لم تكن تستطيع أن تقهرها كلما اضطرته –نزولا على مقتضيات المجتمع أو مقتضيات القلب– إلى أية مضايقة من أجلها . وكان يمضها التفكير في ذلك وهي تهبط السلم الرطب الذي يؤدي إلى جهاز "التليفون" . أما مع "**سـيـمـون**" ، فلم يكن ذلك شأنها . لقد كان من الحرص والانشراح، ومن التحفز لتلبيتها، والمبادرة إلى فتح الأبواب أمامها وإشعال السجائر لها، والإسراع دائما إلى قضاء أدنى رغباتها، بحيث أصبح يحدس هذا كله قبل أن يخطر لها شيء منه، وبحيث كان ذلك أشبه بسلسلة من اللفتات الرقيقة، لا من الفروض والالتزامات . وكانت في صباح ذلك اليوم قد فارقته بين مستيقظ ونائم، وقد احتضن الوسادة، وتشعثت خصلات شعره السوداء، وتركت له هذه الكلمة : "سأخاطبك ظهرا" . ولكنها في الظهر كانت قد التقت بـ"**روجيـه**" ، وها هي ذي تفاجئ نفسها متلبسة بإهماله وحيدا، لتتصل بعاشق صبي نؤوم الضحى . أتراه يفطن إلى ذلك؟ لقد كان متغضن الجبهة مهموما، وعليه عبوس الأيام الكدراء، مما كان يظهره أكبر سنا .

وفي الحـال رفع "**سـيـمـون**" السماعة، وطفق يضحك بمجرد أن لفظت "آلو" ، فضحكت هي أيضا .

– هل صحوت؟

– منذ الساعة الحادية عشرة . إنها الساعة الواحدة . ولقد اتصلت بمركز البريد لأعلم هل ألم عطل بجهاز التليفون .

– لماذا؟

– كان المفروض أن تخاطبيني في الساعة الثانية عشرة . أين أنت؟

– في مطعم "لويجي" . إنني أبدأ تناول الغداء .

– آه! طيب .

وران عليهما الصمت . وأخيرا، أضافت "**بول**" في لهجة جافة :

– إني أتغدى مع "**روجيه**" .

– آه! طيب . . .

– إنك لا تعرف أن تقول غير هذا : "آه! طيب . . ."

سوف أكون في المتجر في الساعة الثانية والنصف، على أكثر تقدير . ماذا تفعل؟

فقال "**سيمون**" متدفق العبارة :

– سأذهب لآتي ببعض الثياب من منزل أمي . وسوف أعلقها على مشاجب عندك، ثم أقصد "دسنوس" لأبتاع تلك اللوحة المرسومة بالألوان المائية التي أعجبتك هناك .

وساورها الضحك لحظة . إنه هو "**سيمون**" ، بطريقته تلك في ربط جملة بجملة .

– لماذا؟ هل تنوي إيداع جميع ملابسك عندي؟

وكانت تبحث في الوقت ذاته عن حجج جدية لتثنيته عن عزمه . ولكن أية حجج؟ إنه لا يكاد يفارقها، وهي لم تلمه حتى ذلك الحين على ملازمته إياها .

وقال "**سيمون**" :

– نعم، فلقد تكاثر الناس حولك . وأريد أن أقف دونك وقفة الكلب الحارس، وأن أظهر معك في حلل نظيفة لائقة .

– سوف نعود إلى هذا الحديث فيما بعد .

لقد كان يخيل إليها أنها تكلمه منذ ساعة . . فقد كان "**روجيه**" ينتظر وحده، في الطابق العلوي . . وسوف يلقي عليها أسئلة، ولن تستطيع أن تدفع عن نفسها شعورا بالذنب يتملكها نحوه .

وقال "**سيمون**" قبل أن يضع السماعة :

– إني أحبك .

وخرجت، فوقفت في طريقها أمام مرآة المشجب تسوي بالمشط شعرها في حركة آلية . لقد كان قبالتها في المرآة وجه يقول له امرؤ : "إني أحبك" .

وكان "**روجيه**" يتجرع كأسا من الكوكتيل، فعجبت "**بول**" من أمره، إذ كانت تعلم أنه لا يتناول قط شرابا من هذا النوع قبل المساء .

– ألست على ما يرام؟

– لماذا؟ آه! تعنين "**الدراي**"؟ لا، إنني متعب اليوم.

– لقد مضى وقت طويل لم أرك فيه.

ولما أجاب بالإيجاب في شيء من شرود البال، أحست بالدمع يصعد إلى عينيها. لسوف يأتي عليهما يوم تقول له فيه، أو يقول لها: منذ شهرين لم نلتق، أم منذ ثلاثة؟ ثم يحسبان الحسبة، في هدوء.. "**روجيه**" هذا بحركاته الرعناء، ووجهه المجهد، ومظهر الطفل الذي يغلب عليه رغم قوته وما يلوح من قسوته.. وأشاحت برأسها. لقد كان يرتدي سترته الرمادية القديمة، تلك التي رأتها –وهي ماتزال جديدة– على كرسي في غرفتها، عند بدء علاقتهما. وكان إذ ذاك شديد الاعتزاز بها. إنه ما كان يهتم بالتأنق إلا فيما ندر، ولقد كان حقا أثقل جسما مما يجوز للرجل الأنيق.

واستأنفت في هدوء:

– خمسة عشر يوما. هل أنت بخير؟

– نعم. على كل حال، لا بأس.

وأمسك عن الكلام. كان يتوقع بلا شك أن تسأله: "وأعمالك؟"، ولكنها لم تفعل.، لقد كان عليها أن تحدثه قبل كل شيء عن "**سيمون**"، فيتيسر له بعد ذلك أن يبوح لها بما يكتمه دون أن يخلف له اعترافه شعورا بالصغار. قال:

– وهل روحت عن نفسك؟

فأمسكت عن الكلام. كان صدغاها يخفقان، وكانت تحس بقلبها ينطفئ. وسمعت صوتها يقول:

– أجل، لقد لقيت "**سيمون**". مرارا.

فقال "**روجيه**":

– آه!.. هذا الولد اللطيف؟ أهو لايزال مجنونا بك؟

فهزت رأسها ببطء، وزادت هزة لم تكن تريدها، وهي لا ترفع عينيها.

قال "**روجيه**": وهل أصبح هذا يروق لك؟

فرفعت رأسها، ولكنه –بدوره– لم يكن ينظر إليها، وإنما كان يوجه انتباها كبيرا إلى ثمرة البرتقال المر "الجريب" التي أمامه. وخطر لها أنه قد فهم، فقالت:

– نعم.

– أهو يروق لك؟ أم أنه يمنحك متعة أكثر؟

وهنا راحا يتبادلان النظر. ووضع "**روجيه**" ملعقته على طبقه. ومضت تتصفح في شوق محتدم هاتين الثنيتين الطويلتين حول فمه، ووجهه الجامد، وعينيه الزرقاوين وقد جللتهما في محجريهما آثار شيء من التعب. وقالت:

– أكثر.

وعادت يد "**روجيه**" إلى الملعقة، فقبضت عليها. وجال في خاطرها أنه لم يحسن يوما آداب تناول هذه الفاكهة. وكان يبدو لها أن الوقت لا يمر، وإن كان يصفر في الوقت ذاته ملء أذنيها.

وقال "**روجيه**": "أظن أن ليس لي ما أقوله".

ومن ذلك عرفت أنه كان شقيا. فلو كان سعيدا، لعاتبها. ولكنه إذا ذاك كان كالمرجوم الذي ألقمته الحجر الأخير. وتمتمت: "لقد كان لك أن تقول كل شيء.

– أنت نفسك تضعين ذلك في صيغة الماضي!

– لكي أوفر عليك هذا العناء يا "**روجيه**". لو أني قلت لك إن كل شيء مازال رهن إشارتك فبماذا عساك تجيبني؟

ولم يجب بشيء، وإنما ظل يحدق إلى سماط المائدة... واستأنفت:

– لابد أنك كنت ستقول إن حريتك أشد إلحاحا عليك، وإن خوفك من أن تفقدها أقوى من... من أن تقاومه ببذل ما يلزم من الجهد لاستردادي.

فقال "**روجيه**" فجأة:

– إني أقول لك إنني لا أدري شيئا. أنا طبعا أكره أن أتصور أنه.. لعله موهوب على الأقل؟

– ليس الأمر أمر مواهب من هذا القبيل. إنه يحبني.

ورأت أساريره تنفرج قليلا، ومقتته لحظة. لقد راح يستعيد طمأنينته، فلم يكن هذا كله في نظره سوى أزمة عاطفية، ومازال هو هو العاشق، الحقيقي، الذكر.

وهنا أضافت: "وإن كنت بطبيعة الحال لا أستطيع أن أقول إنني لست افتتن بمحضره، من ناحية معينة.

وخطر لها، وهي مذهولة: "أنها المرة الأولى التي أؤذيه فيها، متعمدة".

فقال "**روجيه**": "أصارحك بانني ما كنت انتظر، عندما **دعوتك للغداء**، انني سأتجشم سماع قصة عبثك مع فتى صغير."

فقالت "**بول**" فورا: "وإنما كنت تظن أنك ستدع لي أن أجتلي قصة عبثك مع فتاة صغيرة!

فقال وقد عض على نواجذه:

– إن هذا على كل حال أنسب من ذاك.

وكانت "**بول**" ترتعش. ثم تناولت حقيبة يدها ونهضت وهي تقول: "أظن أنك ستحدثني الآن عن عمري؟"

– "**بول**"..

ونهض هو أيضا، ومضى يلاحقها خلال الأبواب التي راحت تغيب وراءها، وقد أعمت عينيها الدموع.. حتى أدركها عند سيارته. لقد كانت تحاول دون جدوى أن تنطلق بها. فمد يده من الباب، ووضع مفتاح الاتصال الذي كانت قد غفلت عنه. ها هي ذي يد "**روجيه**".. وأدارت نحوه وجها حائلا:

– "**بول**".. إنك لتعلمين.. لقد كنت دنيئا. وأسألك المغفرة. إنك تعلمين أنني لم أكن أقصد ذلك.

– أعرف هذا، لكني كنت متألمة أيضا. ويحسن بنا ألا نلتقي مدة من الوقت.

وظل جامدا، وكأنه تائه. وحيته بابتسامة صغيرة، قائلة:

– إلى اللقاء يا حبيبي.

فانحنى على الباب يقول:

– إني متمسك بك يا "**بول**".

وانطلقت مسرعة جدا حتى لا يرى الدمع الذي كان يغشي بصرها. وفي حركة آلية، أدارت ماسحتي الزجاج، فأثار فيها ما أتته ضحكة حزينة. كانت الساعة الواحدة والنصف. كان لديها إذن متسع من الوقت لتعود إلى بيتها حيث تهدأ وتصلح زينتها. وكانت تتمنى –وتخشى في آن واحد– أن يكون "**سيمون**" قد انصرف. وإذا بها تقابله عند الباب الخارجي.

– "**بول**".. ما خطبك؟

ومن ذعره أخطأ التعبير، ونأت عنه صيغة الألفة في القول. فخطر لها: "أنه يرى أنني قد بكيت، ولا شك في أنه يرثي لي" وتضاعفت دموعها، ولم تجب. وفي المصعد، طوقها بذراعيه، ورشف دمعها، وناشدها أن تكف عن البكاء، وأقسم في غير تمييز أن يقتل ذلك الشخص، مما دفعها إلى الابتسام.

– لابد أن منظري رهيب.

وإذ لفظت هذه العبارة، ملكها إحساس بأنها عبارة قرأتها ألف مرة، أو سمعتها في روايات السينما مائة مرة.

ولما جلست على الأريكة بجوار "**سيمون**"، أخذت يده وقالت:

– لا تسألني عن شيء.

– اليوم لن أفعل. ولكنني سأسألك ذات يوم عن كل شيء.. ذات يوم قريب جدا. إني لا أطيق أن يبكيك أحد..

ثم صاح في غضب: ".. لا أطيق أن يتمكن هو من أن يبكيك. وأنا، أو لن أتمكن أنا يوما من إبكائك؟"

ونظرت إليه: إنما الرجال حقا وحوش كاسرة.

– وهل تحرص كل هذا الحرص على ذلك؟

– بل أفضل أن أتعذب أنا.

وأخفى وجهه في نحر "**بول**".

وعندما رجعت إلى بيتها في المساء، كان قد شرب ثلاثة أرباع زجاجة "**سكوتش**"، دون أن يغادر مكانه. وأعلن لها في جد ووقار أنه كان نهبا لهموم شخصية، وارتجل خطابا عن مشقة الوجود، ونعس على السرير بينما كانت تخلع له حذاءه، وهي نصف مشفقة، نصف مذعورة.

*****

كان "**روجيه**" يطل من نافذته وينظر إلي الفجر، وكان ذلك في أحد فنادق الريف المسماة بـ"المزارع"، في ربوع "**ايل دي فرانس**"، حيث يتخذ الريف صورة عجيبة هي مصداق ما يتمثله الذين أرهقتهم المدينة. إنه الريف ذو التلال المطمئنة، والحقول

الخصبة، ولوحات الإعلانات على طول الطريق. غير انه في **تلك الساعة الشاذة** التي يفيق فيها النهار، كان الريف الحقيقي البعيد، ريف الطفولة، قد **أقبل يحاصر "روجيه"** بنفحات مطر ثقيلة باردة. والتفت فقال: "ياله من جو بديع يلائم عطلة آخر الأسبوع!". بيد أنه كان يعتقد: "هذا رائع. إني أحب الضباب. ليتني أستطيع أن أكون وحدي. وفي دفء فراشها تقلبت **"ميزي"**، وسألته:

– أغلق النافذة. الدنيا برد.

وجذبت الغطاء فوق كتفيها. وكادت تختنق –رغم ما كان يشمل جسمها المسترخي من نعيم– إذ تدهمها فكرة هذا النهار الآتي، في ذلك المكان المجهول، مع **"روجيه"** الصامت الذاهل، وتلك الحقول الممتدة ما امتد البصر.. كانت تريد أن تئن. وقالت في لهجة جافة:

– لقد طلبت أن تغلق النافذة.

وكان قد أشعل سيجارة **"جولواز"**، أولى سجاير اليوم، وجعل يتذوق لذعها المنفر تقريبا، واللذيذ مع ذلك، بعد أن انقطع حلم الصباح، وهو يشعر في نوع من نفاد الصبر بعداء **"ميزي"** يبلغه. "فلتغضب، ولتنهض واثبة، ولتركب السيارة العامة، ولتعد إلى باريس! فلسوف أتنزه مشيا في الحقول طول النهار، ولن يتعذر علي أن أجد كلبا ضالا ليرافقني"، ذلك أنه كان يرهب أن يكون وحيدا.

على أن **"ميزي"**، بعد إصدار أمرها الثاني، أصبحت تتردد. لقد كان أمامها أن تنسى النافذة وتستأنف النوم، أو أن تبدأ الشجار. وفي ذهنها الذي مازال يغشيه النعاس، كانت تضطرب عبارات مُثل: "إنني امرأة تشكو البرد. وهو رجل يجب عليه أن يغلق النافذة، بينما تقول لها غريزتها –المبكرة جدا في ذلك اليوم– إن عليها ألا تستفز **"روجيه"**. واختارت حلا وسطا، فقالت:

– كان ينبغي أن تغلق النافذة وأن تطلب الافطار يا حبيبي.

واستدار **"روجيه"**، خائب الأمل، وقال عرضا:

– حبيبي؟ ماذا تعني كلمة "حبيبي"؟

فانشأت تضحك، أما هو فمضى يقول:

– أنا لا أسألك أن تضحكي. أتدركين فقط معنى "حبيبي"؟ هل أنت تحبينني؟

وهل تعرفين إلا عن طريق السمع **والترديد فعل "أحب"**؟

وعجب من العبارات التي فاه بها، وجال بخاطره: "لابد أنني ضيق بأمري حقا. فحينما أبدأ في الاهتمام بألفاظ امرأة، فذلك دليل على أن النهاية قد اقتربت.

وقالت **"ميزي"**: "ماذا جرى لك؟

ورفعت خارج الفراش رأسا كاد يصعقه الرعب، –بحيث بدا له مضحكا– ونهدين لم يعد يشتهيهما. متهتكة. يالها من متهتكة!

فقال: "إن العواطف شيء هام جدا. ولكنها بالنسبة إليك فرصة عابرة، فرصة مناسبة تنتهزينها. لذلك لا تسميني "حبيبي"، ولا سيما في الصباح، أما في الليل، فقد يجوز!

وفطنت **"ميزي"** إلى الخطر المحدق، فاحتجت قائلة:

– بل أني أحبك يا **"روجيه"**.

فصاح بها: "آه! لا، لا تقولي أي كلام كان.

وكان يشعر بخليط من الضيق –إذ صدر عنه ما ينافي طبيعة الرجل الهمام التي تكاد تغلب عليه– ومن التخفف، لأن هذه العبارة قد أعادت الوضع بينهما إلى ذلك الموقف التقليدي الذي يعهده ويألفه، موقف الرجل الذي يتبرم بحب جاء في غير أوانه.

وارتدى مسرعا صديريته الصوفية فوق بنطلونه وخرج آسفا على سترته الثقيلة. ولكنه ما كان يستطيع أن يتناولها إلا إذا طاف حول السرير، وتلك حركة تضيع على خروجه مزية الإسراع التي كان يسعى إليها! وفي الخارج استنشق الهواء المثلوج، فأخذه ما يشبه الدوار. لابد له أن يعود إلى باريس، ولكن دون أن يلقى **"بول"** وتمثل السيارة تنساب على الطرق الرطبة، وأنه يتناول قهوته في حي **"باب أوتوي"**، في باريس يوم الأحد الهامدة، وعاد إلى الفندق فسدد حسابه، وتسلل كاللص الهارب. سوف تحضر **"ميزي"** سترته، وسوف يرسل إليها سكرتيرته لتتسلمها، حاملة لها باقة من الزهر.

وكان يردد في نفسه، بلا مرح: "ذلك إني لا أعرف أن أعيش.

وقاد عربته فترة، مقطب الحاجبين، ثم مد يده نحو المذياع، وتذكر: "معنى فعل "أحب"، كان يصدق على **"بول"** وعلي. إنه لم يعد يتذوق شيئا. لقد فقدها!

# الفصل الرابع عشر

بعد انقضاء أسبوع في مسكنها، ضاق صدر "**بـول**" برائحة التبغ. ففتحت نافذة غرفة الاستقبال، ونادت "**سيمون**"، فلم تتلق جوابا. وساورها الخوف لحظة، وعجبت من إحساسها ذاك. واجتازت غرفة الاستقبال، ودخلت حجرتها. كان "**سيمون**" نائما، وقد تمدد على السرير، وانفتح قميصه حول نحره. ونادته مرة أخرى، فلم يتحرك. ورجعت إلى غرفة الاستقبال، وفتحت خزانة فيها، ونظرت إلى زجاجة "**السكوتش**"، ثم ردتها إلى مكانها، وقد ارتسم على وجهها شيء من عبوس الاشمئزاز. وبحثت بعينيها عن قدح، فلم تجده، ودلفت إلى المطبخ. هناك كان يوجد قدح، مغسول، يسح في الحوض. وظلت برهة جامدة، ثم خلعت معطفها مستانية، وفي الحمام أعادت زينتها وسوت شعرها بعناية. وسرعان ما وضعت الفرشاة، وهي تلوم نفسها على تأنقها وكأنه من النقائص. فما بالها تسعى إلى أن تفتن "**سيمون**"!

وآبت إلي حجرتها، فهزته، وأضاءت مصباح السرير. وتمطى، وتمتم باسمها، ثم انقلب نحو الجدار. فقالت في لهجة جافة:

– "**سيمون**"!

وعندما تقلب بدت ملفعة "**بـول**" التي لابد أنه قد دس فيها وجهه قبل أن ينام. ولقد سبق لها أن مازحته بشأن تطيره، أما الآن فهي صادفة عن الضحك. كانت تشعر بغضب بارد ينالها. وأدارت "**سيمون**" صوب النور، ففتح عينيه، وابتسم، ثم كف عن الابتسام في الحال.. وسألها: "ما الأمْر؟"

– لدي ما أريد أن أقوله لك.

فقال وهو يجلس على السرير: "كنت أتوقع ذلك"

ونهضت، لأنها اضطرت إلى أن تكبت حركة آلية كادت تأتيها لتزيح الخصلة السوداء التي كانت تتدلى على عينيه. واستندت إلى النافذة.

– "**سيمون**"، إن هذا الحال لا يمكن أن يستمر. وهذا آخر تنبيه أوجهه إليك. يجب عليك أن تعمل. لقد بلغ بك الأمر أن أمسيت تشرب في الخفاء!

– أنا إنما غسلت القدح، لأنك تكرهين عدم النظام!

فقالت بعنف: "إني أكره عدم النظام والكذب، والخنوع وقد بدأت أكرهك.

وكان قد نهض، فإنها تحس به واقفا وراءها، حائل الوجه، وتتعمد ألا تلتفت إليه.

وقال: "كنت أشعر شعورا واضحا بأنك أصبحت لا تحتمليننني. وبين الاكتفاء بالمودة والانصراف عن الحب، خطوة واحدة سريعة، أليس كذلك؟

– ليست المسألة مسألة عواطف، يا "**سيمون**". المسألة هي أنك تشرب، وأنك لا تعمل شيئا، وأنك تتبلد. لقد قلت لك أن تشتغل. أوصيتك بذلك مائة مرة. وهذه هي المرة الأخيرة.

– وماذا بعدها؟

– بعدها، لن أطيق أن أراك.

فقال مستغرقا في التفكير:

– لعلك ترضين بأن تهجريني هكذا.

– نعم.

واستدارت نحوه، وفتحت فاها: اسمع يا "**سيمون**"..

وكان قد عاد فجلس على السرير، وراح ينظر إلى كفيه نظرات غريبة ثم رفعهما ببطء حتى أسندهما إلى وجهه وظلت مشدوهة. لم يكن يبكي، ولم يكن يتحرك، وبدا لـ"**بـول**" أنها لم تر قط من قبل انسانا في مثل هذا اليأس المستحكم. وتمتمت باسمه، كأنها تريد أن تنتشله من خطر لم تكن تدركه، ثم أقبلت عليه. لقد كان يترنح في رفق على حافة السرير، ومازال يخفي وجهه. وظنت لحظة أنه كان ثملا، فمدت يدها لتوقف هذا الترنح. ثم حاولت أن تنحي يديه، فكان يقاوم، وانتهى بها الأمر إلى أن تركع قبالته وأن تمسكه من معصميه.

– "**سيمون**"، انظر إلي.. "**سيمون**"، دعك من هذه المهزلة.

وأزاحت يديه، فنظر إليها. كان ذا وجه جامد أقصى الجمود، أملس، كوجوه بعض التماثيل، وفي عينيه نظرتها الصماء العمياء. ودون أن تعي، وضعت "**بول**" يدها على عينيه.

– ماذا دهاك؟ "**سيمون**".. قل لي، ماذا بك؟

فزاد من انحنائه، وحط رأسه على كتفها، وهو يزفر زفرة لاغب مهدود.. وقال في سكينة:

– بي أنك لا تحبينني، وأن جميع ما في وسعي أن افعله لا **يجدي**.. **وانني**، منذ البداية، كنت أعلم أنك سوف تصدينني.. وانني كنت أنتظر، وأنا **اطاطئ ظهري** تارة وأتعلل بالأمل تارة أخرى.. وهذا هو شر البلية، أنني كنت أتعلل بالأمل أحيانا، ولا سيما في الليل –وقد قال هذه العبارة في وجهها– ثم حدث اليوم ما كنت منذ ثمانية أيام على يقين منه، ولم يكن كل ما في الدنيا من الشراب يستطيع أن يبعث الطمأنينة في نفسي. لقد كنت أشعر بك تبغضينني على مهل. هو ذاك يا "**بول**"، ثم يا "**بول**"..

وكانت قد طوقته بذراعيها، وجعلت تضمه إليها، وملء عينيها الدموع. وكانت تسمع صوتها يتمتم بكلمات مطمئنة: ""**سيمون**"، أنت مجنون... ما أنت سوى طفل.. يا حبيبي، يا حبيبي المسكين.. وكانت تقبل جبهته، ووجنتيه. وخطر لها لحظة –وهي تقسو على نفسها– أنها قد بلغت في ختام أمرها درجة الأمومة. وفي الوقت ذاته، كان بها شيء يعاند، ويروق له أن يهدهد في "**سيمون**" ألما قديما مشتركا.. وقالت:

– إنك متعب. لقد مثلت لنفسك رواية الرجل المهجور، فكنت ضحية تمثيلك. إنني حريصة عليك. إنني يا "**سيمون**" حريصة جدا عليك. لقد كنت شاردة البال، في هذه الأيام الأخيرة، تشغلني شؤون عملي، هذا كل ما في الأمر.

– أهذا كل ما في الأمر؟ أولا تريدين أن أرحل؟

فقالت وهي تبتسم: ليس اليوم. إنما أنا أريد أن تعمل.

– سوف أعمل كل ما تشائين. تمددي بقربي يا "**بـول**"، فلقد عصف بي الخوف. إنني محتاج إليك. قبليني.. ولا تتحركي الآن. إني أكره هذه الثياب المعقدة.. "**بول**"..

وبعد ذلك، لم تتحرك. كان يتنفس وادعا في حضنها، مكدودا، وإذ وضعت يدها على رقبته، اجتاحها شعور بالتملك، شعور بلغ من حزه وإيلامه أن صور لها أنها تحبه.

وفي اليوم التالي، مضى إلى عمله، فأصلح بعض ما كان قد فسد بينه وبين أستاذه، وتصفح بعض الملفات، وخاطب "**بـول**" بالتليفون ست مرات، واستعار نقودا من أمه التي رضيت عنه، ثم رجع لدى "**بـول**" في الساعة الثامنة والنصف، يبدو عليه إرهاق العمل. وكان قد عمد في آخر النهار إلى إنفاق ساعتين في لعبة "٤٢١" بإحدى الحانات، لا لشيء إلا ليعود هذه العودة المظفرة. وكان يعتقد في قرارة نفسه أن تلك مهنة مملة جدا، وأنه سيجد كثيرا من المشقة في سبيل ملء الساعات الجوفاء.

## الفصل الخامس عشر

اعتاد "**روجيه**" و"**بول**" أن يرحلا معا في شهر فبراير لقضاء أسبوع في الجبل. وكان من المصطلح عليه بينهما، مهما كان وضعهما العاطفي (وفي ذلك العهد لم يكن الأمر يعني سوى وضع "**روجيه**")، أن يتدبرا شأنهما بحيث يدخران على هذا النحو، في كل شتاء، بضعة أيام هادئة. وذات صباح، خاطب "**روجيه**" "**بول**" في مكتبها، ينبئها بأنه قد اعتزم السفر بعد عشرة أيام، ويستفهم عم إذا كان ينبغي أن يأخذ تذكرة لها. فكان صمت. وتساءلت لحظة، في هلع، ما عسى أن يكون الحافز لديه إلى هذه الدعوة: أحاجة غريزية إليها، أم ندم، أم الرغبة في أن يفصلها عن "**سيمون**"؟ وربما لم تكن ترتاح نفسها إلا للتعليل الأول، بيد أنها كانت على يقين –مهما قال لها– من أن اطمئنانها لن يدرأ عنها شر العذاب إبان ذلك المقام. وفي الوقت ذاته، كانت تتمثل "**روجيه**" في الجبل، يفيض حيوية، ويهبط المنحدرات كأنه الكرة، جارا إياها وراءه، وهي مذعورة.. فتمزق قلبها هذه الذكرى.

– إيه؟ ما قولك؟

– لا أعتقد إن هذا ممكن يا "**روجيه**". سوف نتظاهر إذ ذاك بأن... بأننا لسنا نفكر في شيء آخر.

– الحق أني إنما أرحل كي لا أفكر في شيء. وأؤكد لك أنني قادر جدا على ذلك.

– كنت خليقة بأن أسافر معك لو أنك.. (وأوشكت أن تقول: "لو أنك كنت قادرا على أن تفكر في، أن تفكر فينا"، ولكنها صمتت).. لو أنك في حاجة حقا إلي محضري. فلسوف تكون في خير حال وحدك أو مع.. أحد غيري.

– طيب. إذا صح فهمي، فأنت لا تريدين مغادرة باريس في هذه الآونة.

وقالت في نفسها: "إنه يفكر في "**سيمون**".. لماذا لا يستطيع امرؤ أن يفصل المظاهر عن الحقيقة؟" وفي الوقت ذاته، قالت لنفسها أن "**سيمون**"، منذ شهر، قد أصبح في الظاهر "حياتها اليومية". ولعلها كانت مدينة له بهذا الرفض الذي سرعان مادفعها دافع إلى أن تجابه به صوت "**روجيه**" فقالت:

– إن شئت هذا التأويل..

وكان صمت.

– لا تبدو على وجهك دلائل الصحة الجيدة يا "**بول**" في هذه الايام، بل يلوح عليك التعب. فإذا لم تسافري معي، فلتسافري إلى جهة أخرى، إنك في حاجة إلى ذلك.

وكان صوته رقيقا حزينا، فأحست "**بول**" بالدموع تصعد إلى عينيها. أجل، لقد كانت في حاجة إليه، لقد كانت في حاجة إلى أن يبسط عليها حمايته كاملة، بدلا من أن يعرض عليها هذه الأيام العشرة بسعر أرخص. كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك، فإن لكل شيء حدودا، حتى لأنانية الذكور.

قالت: "لسوف أسافر. وسوف نتبادل إرسال بطاقات البريد المصورة، من قمة إلي أخرى.

وأنهى المكالمة. والخلاصة أنه ربما كان قد سالها عونا، بكل بساطة، فامتنعت عن إمداده بذلك العون. يالهذا من حب رائع تكنه له! ولكنها كانت في الوقت ذاته تشعر شعورا مبهما بأنها قد أصابت، وبأن من حقها أن تتشدد وأن تشقى بتشددها، بل وإن ذلك يكاد يكون من واجبها. وبعد، فإنها امرأة يهيم بحبها عاشق مفتون. ولم تكن، حتى ذلك الحين، قد ارتادت في صحبة "**سيمون**" إلا مطاعم الحي الصغيرة، وحدهما دائما. غير أنها، عندما رجعت إلى البيت في ذلك المساء، وجدته واقفا في مدخل الباب، وقد ارتدى حلة قاتمة، وسوى شعره كابدع ما يكون، وعليه سمات الوقار. هناك لاحظت، كما لاحظت من قبل، سحر جماله: امتداد عينيه الخلاب، وقسامة فمه المتقنة، ورأت –مما أضحكها– أن هذا الغلام الأمرد، الذي يقضي النهار بين ثنايا ملابسها في انتظارها، كانت له وسامة فارس مرموق، وجلاد يفتك بالقلوب!

– يا للأناقة! ما الخبر؟

– إننا خارجان. سنتعشى في مكان فاخر ونرقص. ولو اقتصرنا على أكل بيضتين مقليتين هنا، لما قل سروري، ولكني أود أن أنزهك.

وراح يخلع عنها معطفها. ولاحظت أنه قد غمر نفسه بالماء المعطر. وفي غرفتها، على السرير، كان قد انبسط ثوب من ثياب السهرة، مفتوح الصدر جدا، لم يسبق لها أن ارتدته سوى مرتين في حياتها. وقال "**سيمون**":

– إنه الثوب الذي أفضله. هل لك في كوكتيل؟

وكان قد أعد من أصناف الكوكتيل ما تحبه.. وجلست "**بول**" على السرير، مبلبلة الخاطر، فها هي ذي تنزل من الجبل لتجد نفسها في سهرة من سهرات المجتمع الراقي!

وابتسمت له.

– هل أنت راضية؟ أرجو ألا تكوني متعبة، على أقل تقدير. إذا شئت، خلعت هذه الحلة فورا وبقينا ها هنا.

وضع إحدى ركبتيه على السرير في حركة من يخلع سترته. فاستندت إليه، ودست يدها تحت قميصه، وأحست بحرارة جلده تحت كفها. لقد كان ينبض بالحياة وقالت:

– إنها فكرة ممتازة. أتحرص على أن ألبس هذا الثوب؟ إنه يظهرني كالمجنونة إلى حد ما.

– إني أحبك عارية، وهذا أكثر ثيابك عريا. لقد تخيرته بعد بحث طويل.

وتناولت كأسها فشربته. لقد كان من الممكن لها أن تعود بمفردها إلى مسكنها، وأن تنام بصحبة كتاب، يخيم عليها شيء من الحزن، كما كان حالها قبله، ولكنه كان هناك، كان يضحك، ويفيض بشرا، وهي تضحك معه، وهو يصر على أن تعلمه رقصة "**الشارلستون**"، مضيفا في مرح إلى عمرها عشرين سنة غابرة، فتنخرط في الرقص وتتعثر على السجادة وتقع بين ذراعيه لاهثة، فيضمها إليه، وتسترسل في الضحك، ناسية كل النسيان "**روجيه**" والجليد والحسرات. لقد كانت صبية، لقد كانت حسناء، لقد كانت تدفعه إلى خارج الغرفة، لتتزين وتتبرج وتلبس هذا الثوب الخليع، وهو يطبل على الباب نافد الصبر. وعندما طلعت عليه نظر إليها مبهورا، وكسا بالقبلات كتفيها. وسقاها "**كوكتيلا**" ثانيا، وهي التي لم تكن تعرف الشرب،. لقد كانت سعيدة.. سعيدة على نحو عجيب!

وفي الملهى، إلى مائدة مجاورة لمائدتهما، تعرفت على امرأتين تكبرانها قليلا، كانتا تعملان معها أحيانا، فوجهتا إليها ابتسامة ملؤها الدهشة. وحينما قام "**سيمون**" ليراقصها، سمعت هذه العبارة الصغيرة: "كم يبلغ عمرها الآن؟"

فاعتمدت على "**سيمون**". لقد فسد كل شيء. بدا لها ثوبها مثارا للسخرية بالنسبة لسنها، وبدا لها "**سيمون**" ملفتا للأنظار بأكثر مما يجوز، وبدت لها حياتها غير ذات معنى. وسألت "**سيمون**" أن يعود بها. فلم يحتج، وأدركت أنه، هو أيضا، قد سمع.

وبادرت إلى خلع ثوبها. وأنشأ "**سيمون**" يتحدث عن الفرقة الموسيقية. لقد كانت تود لو أنها صرفته،. وتمددت في الظلام بينما مضى يخلع حلته. ما كان لها أن تشرب

هاتين الكاسين من "**الكوكتيل**" وتلك الكاس من "**الشمبانيا**"، **فسوف** تصبح مشدودة القسمات. وهمدت كان الأسى قد أصماها. وعاد "**سيمون**" **إلى غرفة** النوم، فجلس على حافة السرير، ووضع يده على جبينها. فقالت:

– ليس هذا المساء يا "**سيمون**"، إنني كليلة.

ولم يجب، وظل جامدا، وكانت ترى صورته وقد ارتسمت خطوطها الخارجية ازاء الضوء المنبعث من الحمام.

كان حاني الرأس كمن يفكر. وأخيرا قال:

– "**بول**"، لابد أن أكلمك.

– الوقت متأخر. إنني ناعسة، غدا.

– كلا، إني أريد أن أكلمك في الحال. وستنصتين لي.

ففتحت عينيها، مشدوهة. فقد كانت تلك أول مرة يستخدم فيها السيطرة معها!

– لقد سمعت مثلك ما قالته هاتان العجوزان الشمطاوان من ورائك. ولست أطيق أن يؤثر ذلك فيك. هذا غير جدير بك، هذا من الجبن، ومما يجرح شعوري.

– إنما أنت يا "**سيمون**" تخلق مأساة من لا شيء.

– إنني لا أخلق مأساة، بل أريد على العكس أن أجنبك خلق المآسي. إنك طبعا ستخفينها عني. ولكن ليس لك أن تخفيها عني، فلست صبيا صغيرا يا "**بول**". إن في مقدوري تماما أن أفهمك، وربما أن أساعدك. إنني سعيد جدا معك، كما تعلمين، غير أن طمعي لا يقف عند هذا الحد، فإني أريد أن تكوني أنت سعيدة معي. إنك في الوقت الحاضر تتعلقين بـ"**روجيه**" تعلقا يحول دون ذلك. فينبغي أن تقبلي اعتبار قصتنا شيئا إيجابيا، تساعدينني في بنائه، مجرد مصادفة سعيدة. هذا ما أردت أن أقوله.

وكان يتكلم في رزانة، ولكنه كان يبذل جهدا. وكانت "**بول**" تصغي إليه في دهشة، وفي نوع من الأمل. لقد كانت تعتقد أنه سادر ذاهل، بيد أنه لم يكن غائب الوعي، بل كان يعتقد أنها تستطيع أن تبدأ كل شيء من جديد. لعلها، رغم كل ما بلته، مستطيعة..؟

– تعلمين أنني لست بمستهتر. إنني في الخامسة والعشرين من عمري، إلا أني لم أعش قط قبلك، ويقينا لن أعيش بعدك. فإنك أنت المرأة التي أحتاج إليها، وأنت فوق كل شيء الكائن الإنساني الذي لابد لي منه. إني لأعرف ذلك. فإذا كنت تشائين، تزوجتك غدا.

– إنني بلغت التاسعة والثلاثين.

– ليست الحياة مذكرات نسائية، ولا مجموعة من التجارب القديمة. إنك تكبرينني أربعة عشر عاما، وإني أحبك، ولسوف أحبك زمانا طويلا. هذا كل ما في الأمر، ولذلك، لا أطيق أن تنزلي إلى مستوى هاتيك العجائز مثلا، ولا إلى مستوى رأي الناس. إنما المشكلة، بالنسبة لك، بالنسبة لنا، هي "**روجيه**". وليست هناك مشكلة سواها..

– "**سيمون**" أسألك المغفرة إذ إنني.. إذ فكرت في..

– أنت لم تفكري في أنني كنت أفكر.. هذا كل ما في الأمر. الآن أفسحي قليلا.

ودلف إلى جوارها، فقبلها ونالها. ولم تحتج بأنها متعبة، ولقد انتزع منها لذة عاتية لم يشعرها بمثلها حتى ذلك الحين. ثم ربت جبينها الذي بلله العرق، ووسدها تجويف كتفه، على غير عادته، وجذب الأغطية فوقها، بعناية. وقال:

– نامي. إني أتكفل بكل شيء.

وفي الظلام ابتسمت شفتاها ابتسامة صغيرة رقيقة، ووضعت فمها على كتفه، وأما هو فتلقى هذه النفحة في سكون السيد القدير. وظل هزيعا طويلا من الليل ساهرا، يروعه جده، ويتيه اعتزازا بحزمه.

# الفصل السادس عشر

دنت عطلة عيد الفصح، فراح "**سيمون**" ينفق النهار تلو النهار منكبا على خرائط، تستخفي تارة بين ملفات أستاذه وتنبسط تارة أخرى على سجادة "**بول**". وهكذا فرغ من تخطيط رحلتين في ربوع إيطاليا، وثلاث رحلات في ربوع أسبانيا، وهو الآن يتجه إلى بلاد اليونان. وكانت "**بول**" تصغي إليه دون أن تقول شيئا، فهي لن تملك –على أحسن تقدير– إلا عشرة أيام، وكانت تشعر بأنها من شدة التعب بحيث يصعب عليها مجرد ركوب قطار. لقد كانت تتمنى بيتا في الريف، وأياما تتشابه، ومقاما –بالإيجار– كعهد الطفولة! ولكنها لم تكن تجد في قلبها الشجاعة لتثبيط همة "**سيمون**". لقد كان بين أوراقه يتمثل نفسه رحالة ممتازا، يثب من المركب ليعينها على النزول، ويقودها نحو عربة قد حجزها من قبل عشرة أيام، كي توصلهما إلى أفضل فندق في المدينة، فيدخلان غرفة تحليها الزهور طبقا لبرقية سبق له أن أرسلها.. ناسيا أنه لم يكن يعرف أبدا كيف ينتقل من قطار إلى قطار في أثناء رحلاته، ولا كيف يحتفظ بتذكرة!.. كان يحلم، ويسترسل في أحلامه، ولكن جميع أحلامه كانت تنطلق نحو "**بول**"، وتتدفق صوبها تدفق الأنهار المائجة على بحر هادئ. إنه لم يشعر قط في حياته بمثل هذه الحرية التي مضى يستروحها طوال هذه الأشهر القليلة التي شهدته كل يوم في نفس المكتب، وكل مساء لدى نفس الإنسان، في نفس المسكن، متعلقا بنفس الرغبة، ونفس الهم، ونفس العذاب. ذلك أن "**بول**" لم تزل تروغ أحيانا، لم تزل تحول عينيها، وتبتسم في رقة أمام عباراته الملتهبة.. "**بول**" لاتزال تلتزم الصمت كلما دار الحديث حول "**روجيه**". وكثيرا ما كان يجد أنه يخوض صراعا لا معنى له، صراعا مرهقا، صراعا لا مخرج منه، لأن مرور الزمن –وكان على يقين من ذلك– لم يكن يتيح له أن يكسب شيئا. فلم يكن عليه أن يمحو ذكرى "**روجيه**"، بل كان عليه أن يقتل في "**بول**" شيئا ما، هو "**روجيه**"!.. أن يقتلع نوعا من الجذور، مستأصلا، عصيا، موجعا، كانت هي تنطوي عليه في ثبات. ولقد بلغ به الأمر أحيانا أن يتساءل هل هذا الثبات، وهذا الرضا بالعذاب، هما اللذان حببتاها إليه؟.. وهل هما اللذان أفلحا في الإبقاء على حبه؟.. غير أنه كان في أغلب الأحيان يقول لنفسه: "إن "**بول**" تنتظرني، وبعد ساعة سوف آخذها بين ذراعي، فيبدو له إذ ذاك أن "**روجيه**" لم يوجد قط، وإن "**بول**" تحبه هو، "**سيمون**"، وأن الأمر بسيط، ناصع السعادة. ولقد كانت "**بول**" تفضله في تلك الآناء بعينها، إذ كان هو يفرض عليها تجاوبهما وكأنه حقيقة بديهية، وواقع لا يسعها إلا أن تقره. لقد كانت تضيق بما تتكلف من ألوان التحفظ. بيد أنها، إذا انفردت بنفسها، كانت ترى أن حياة "**روجيه**" بدونها خطأ جسيم، وكانت تتساءل في رعب كيف قد بلغا هذا الحد. وكان ضمير المثنى –"هما" أو "نحن"– يعني دائما "**روجيه**" وإياها.

أما "**سيمون**" فقد كان هو. ولكن "**روجيه**" لم يكن يعلم من ذلك شيئا. إنه إذا أعيته حياته فسوف يقبل كي يبثها شكواه، وسوف يحاول بلا شك أن يستردها. ولعله يصل إلى ما يريد، فينجرح "**سيمون**" جرحا حاسما، وتصبح هي وحيدة من جديد، تنتظر مكالمات تليفونية غير مضمونة، وجراحا صغيرة مضمونة. ثم كانت تثور على إيمانها بالقدر، على ما يساورها من أن هذا كله قضاء محتوم. لقد كان في حياتها شخص محتوم، ألا وهو "**روجيه**"!

على أن ذلك لم يكن يحول بينها وبين أن تعيش مع "**سيمون**"، وأن تتآوه في أحضانه ليلا، وأن تضمه إليها أحيانا ضمة طويلة لا يستطيع أن يأتي مثلها إلا الأطفال أو العشاق المبدعون... ضمة تستأثر وتستولي، ضمة متلهفة لهفة الإنسان حين يلوح له خطر زوال كل ما يملكه!.. ضمة من الشدة بحيث لم يكن هو نفسه يدري مداها. في تلك اللحظات كانت "**بول**" تمس الشيخوخة، كانت تبلغ ذلك الهيام العجيب، الفريد الذي يختص به الشيوخ، ثم كانت تضمر اللوم لـ"**روجيه**"، هذا الذي لم يكن يفرض عليها الافتراق فرضا، "**روجيه**" الذي لم يكن هناك.. إنها عندما كان ينالها "**روجيه**"، كانت تحس بأنه سيدها، وبأنها ملك له، فلقد كان لا يكاد يكبرها سنا، وكان كل شيء مطابقا لقواعد معلومة من قواعد الأخلاق والجمال ما كانت لتظن حتى ذلك العهد أنها كانت تحرص على مراعاتها. ولكن "**سيمون**" لم يكن يحس بأنه سيدها. لقد راح يمثل على غير وعي منه مهزلة لم يكن يخطر له أنها قد تفضي به إلى الضياع، فوقف منها موقف التابع في كل شيء، موقفا كان يدفعه إلى أن ينام على كتف صاحبته كما لو كان يلتمس أن تحميه، ويحمله على أن ينهض في الفجر ليعد طعام الإفطار، ويدعوه في آخر الأمر لطلب النصيحة بصدد كل ما يعرض له، وهو موقف

كانت ترق له "**بول**" إلا انه كان يضايقها دون أن تدري لماذا، **ويحرجها إحراج** وضع شاذ. إنها كانت تضمر له التقدير، فقد دأب الآن على العمل، **وقد اصطحبها** مرة إلى قضية في "**فرساي**" حيث أدى أمامها تادية رائعة دور المحامي الشاب الذي يصافح الأيدي، ويتفضل بالابتسام لمراسلي الصحف، ويعود إليها دائما وكأنها محور اضطرابه، قاطعا أحيانا ما يسترسل فيه من عبارات تثبت لبعض المجهولين بلاغته ريثما يلتفت إليها، خفية، ليتحقق هل هي تنظر إليه. كلا، إنه لم يكن يمثل حيالها مسرحية الزاهد الخلي. ولذا كانت ترنو إليه وقد أودعت في نظرتها أقصى ما يمكن من الإعجاب والاهتمام، وهي نظرة كانت تتبدل -منذ يوليها ظهره- فتصير حنانا يخالطه شيء من الزهو. فلقد كان النساء يكثرن من النظر إليه. وكانت هي هانئة، تشعر أن إنسانا يعيش من أجلها، لقد أصبحت لا ترى في تفاوت السن بينهما إشكالا، ولم تكن تسائل نفسها: "وبعد انقضاء عشر سنين، أتراه يظل يحبني؟ فبعد انقضاء عشر سنين سوف تكون وحيدة، أو سوف تكون مع "**روجيه**". كان شيء ما في داخلها يردد لها ذلك بإصرار. وكلما هتفت بها فكرة هذا الازدواج الذي لا حول لها دونه ولا قوة، كان حبها لـ"**سيمون**" يتضاعف: "ضحيتي، يا ضحيتي العزيزة، يا صغيري "**سيمون**"!. وللمرة الأولى تذوقت تلك اللذة الهائلة، لذة أن تحب من سوف تسومه العذاب، حتما!

حتما هذه وعواقبها -أي الأسئلة التي كان "**سيمون**" مزمعا أن يلقيها عليها ذات يوم، والتي سوف يصبح من حقه أن يوجهها إليها بوصفه إنسانا يتعذب- كانت تروعها. "لماذا تفضلين علي "**روجيه**"؟ وبأي شيء يمتاز هذا الصفيق الشارد علي أنا، وعلى الحب العنيف الذي أهديه إليك كل يوم؟ وهناك كان يجن جنونها، لمجرد التفكير في أنه سوف يتعين عليها أن تشرح مكان "**روجيه**" منها. إنها لن تقول "هو"، بل ستقول "نحن"، لأنها لم تفلح في أن تفرق بين حياتيهما. وكانت تجهل لماذا. فلعل تلك الجهود التي بذلتها من أجل حبها منذ ست سنين، تلك الجهود المتواصلة، الموجعة، قد غدت لديها في آخر الأمر أثمن من السعادة. ولعلها بدافع من كبرياء، لا تطيق التسليم بأن تلك الجهود كانت بلا جدوى، ولعل هذا التكبر فيها، من فرط ما أصابته النكبات، راح يتغذى بجهودها شيئا فشيئا، حتى انتهى إلى انتخاب "**روجيه**" وتوليته عليها سيدا موكلا بتعذيبها. ولكنه كان يروغ منها دائما. وأصبح هذا الصراع المريب علة وجودها.

ومع ذلك، فلم يكن الصراع شيمتها. وكانت تقول هذا لنفسها أحيانا، وهي تداعب شعر "**سيمون**" الناعم الحريري المنساب، وتدلكه في عكس اتجاه نموه. لقد كان في مقدورها أن تجوس خلال حياة مذللة لها، كما تجوس يدها خلال هذا الشعر، وكانت بذلك تتمتم له. وكانا يلبثان على هذا النحو ساعات طويلة في ظلام الليل، قبل أن يدركهما النوم. كان كلاهما يمسك بيد الآخر، ويبيتان يتهامسان، فيلم بها أحيانا ذلك الإحساس المضحك بانها مع تلميذة من زميلات الدراسة، في سن الرابعة عشرة، وقد أوتا إلى أحد تلك المخادع الكبيرة العامرة بالأشباح، حيث تتكلم الصبيات، بصوت خافت، عن الله وعن الرجال. كانت تهمس، وكان "**سيمون**" -طروبا بهذا التسار- يناجيها بدوره همسا.

- وكيف كانت تصبح إذ ذاك حياتك؟

- كنت خليقة بأن أبقى في كنف "**مارك**"، زوجي. لقد كان لطيفا في الواقع، ومن أرقى أهل المجتمع، ومال طائل أيضا.. إنني أردت أن أجرب..

وكانت تحاول أن تشرح له، وتصف كيف اتخذت حياتها فجأة شكل حياة، بمجرد أن قررت قرارها، في تلك الفترة التي انغمرت إبانها في عالم المهن النسائية المعقد، وياله من عالم وعر مهين! إنه ألوان من السعي، ومن المنغصات المادية، والابتسامات، والصمت. وكان "**سيمون**" يصغي إليها، وهو يريد أن يستبين ضمن تلك الذكريات شيئا ما قد يمت بصلة إلى حبه.

- وبعد؟

- وبعد، فإنني أظن أنه كان بإمكاني أن أعيش على ذلك النحو.. ومثل هذا العيش كان سيؤدي بي إلى أن أخون "**مارك**" دون أن أقصد، لست أدري.. كل ما في الأمر أنني كنت سأتعرض لإنجاب طفل. ولو لم يكن سوى هذا فقط..

وصمتت. وضمها "**سيمون**"، فقد كان يريد منها طفلا، كان يريد كل شيء. وضحكت، ولامست بشفتيها عينيه، واستأنفت تقول:

- في سن العشرين، لم يكن الأمر كذلك. إني لأتذكر في جلاء أنني قررت إذ ذاك أن أكون سعيدة.

أجل، إنها كانت تتذكر في جلاء، لقد كانت تذرع الشوارع في المدينة، والشواطئ في المصايف، تستخفها رغبتها. لم تكن تني عن المشي، تنشد وجها.. وفكرة.. فلم

يكن يعييها البحث عن فريسة. كانت إرادة السعادة تحلق فوق راسها، بعد ان حلقت فوق رؤوس ثلاثة أجيال، ولم تكن هناك عقبات، فكانت تستهين بكل ما قد يعترض سبيلها.. وأما الآن، فهي لم تعد تسعى إلى أن تنال، وإنما كانت تسعى إلى أن تستبقى.. كانت تسعى إلى أن تحتفظ بمهنة وأن تحتفظ برجل، وهي تتمسك بتلك المهنة وبهذا الرجل منذ أمد طويل، ولا تزال –وهي في التاسعة والثلاثين من العمر– غير واثقة من دوامهما لها. وكان "**سيمون**" يغفى وهو في حضنها، فتهمس: "حبيبي، هل أنت نائم؟.."، وتوقظه هذه الكلمات نصف يقظة، فينكر أنه قد هجع، ويشد نفسه إليها في ظلام الليل، في عطرها، في دفئيهما المختلطين، ويشعر بنعيم عجيب.

## الفصل السابع عشر

تلك كانت سيجارته الثلاثين، أحس "**روجيه**" بذلك وهو يسحق عقبها في المنفضة الغاصة. واختلج بالنفور، وأضاء مصباح السرير مرة أخرى. كانت الساعة الثالثة صباحا، ولما يتسن له أن يهجع. وفتح النافذة بغتة، فنفح الهواء المثلوج وجهه وعنقه، بشدة دفعته إلى أن يغلق الزجاج، ثم اتكأ على النافذة وكأنه يريد أن يرى البرد. وانصرف أخيرا عن تأمل الشارع المقفر، وألقى نظرة على مرآته، وأشاح عنها في الحال. لم تكن صورته تعجبه. وتناول علبة سجاير "**الجولواز**" من فوق المنضدة، ووضع إحداها بحركة آلية في فمه، ولم يلبث حتى أعادها. إنه الآن لا يحب تلك الحركات الآلية التي كانت تتضمن بالنسبة إليه قسطا كبيرا من لذة الحياة، إنه الآن لا يحب تلك الحركات التي يأتيها رجل وحيد، ولا يحب طعم التبغ، كان عليه أن يلتمس علاجا، فلا ريب في أنه مريض. أجل، لقد كان يأسف على "**بول**"، ولكن حسرته تلك لم تكن العلة الكافية لفساد أمره. لابد أنها راقدة في هذه اللحظة بين ذراعي ذلك الفتى المدلل، وقد نسيت كل شيء. وأما هو، "**روجيه**"، فما كان له إلا أن يخرج، وأن يجد بغيا، وأن يشرب. هكذا كانت تتمثله "**بول**" على كل حال. كان يشعر بذلك، كان يشعر بأنها لم تضمر له قط التقدير والاحترام حقا. لقد كانت دائما تراه غليظا، فظا، بالرغم من أنه كان يقدم لها أفضل ما في نفسه، أمتن ما لديه. وتلك خصال النساء: يظهرن أنهن يطالبنك بكل شيء، وأنهن يمنحنك كل شيء، حتى إذا استدرجنك إلى أقصى غاية الثقة، احتجبن ذات يوم، لأتفه الأسباب! فلم يكن شيء أتفه في نظر "**بول**" من علاقة لها بـ"**سيمون**" ولكن ذلك الولد، كان في هذه اللحظة يحتضنها، ويميل على وجهها المستلقي، وعلى هذا الجسم البض، المستسلم للنشوة، الـ... واستدار في الغرفة فجأة، وأشعل أخيرا سيجارته، ومضى يستنشق الدخان في شره محتدم، ثم أفرغ المنفضة في المدفأة. وكان عليه أن يوقد في المدفأة نارا.. لقد كانت "**بول**" توقدها كلما جاءت، فكانت تمكث على ركبتيها أمام المدفأة، ترقب مولد الجذوات، وتذكيها بحركة من حركاتها الصائبة، المتئدة جدا، ثم تنهض، وتتراجع قليلا، وإذا بالغرفة وردية، تضطرب فيها الظلال، فتثور به الرغبة في أن يضاجعها، ويقول لها ذلك. لقد انقضت تلك

الأمسيات منذ زمن طويل. من أي عهد كفت "**بول**" عن المجيء؟ منذ سنتين، ربما منذ ثلاث سنين. فقد اعتاد أن يلقاها في مسكنها، وكان هذا أسهل، لأنها كانت تنتظره.

وكان لايزال ممسكا بالمنفضة في يده، فتركها: وتدحرجت المنفضة على الأرض، سليمة. لقد كان يود لو تحطم هذا الشيء، وخرج من جموده، وتناثرت الشظايا والبقايا. ولكن المنفضة لم تتحطم، فالمنافض لا تتهشم إلا في القصص وفي روايات السينما، وكان يحتاج دون ذلك لإحدى تلك المنافض الزجاجية الرشيقة التي يزدحم بها مسكن "**بول**"، لا لهذا الصنف الجيد من سلع المحلات التجارية الشعبية. ولعله قد كسر مائة على الأقل من شتى هذه الأشياء لدى "**بول**"، فكانت هي تضحك، والمرة الأخيرة كانت كأسا فاتنة من البلور يتشعشع فيها "الشراب" بلون أصهب غير عادي. والحق أن كل شيء كان يمتاز بمثل هذا الرونق، داخل تلك الدار التي كان هو السيد فيها والمولى. كان كل شيء متسقا، عذبا هادئا. ومع ذلك، فقد كان يظن أنه يفلت منها وينعم بالفرار، كلما انصرف في الليل. والآن، ها هو ذا وحيد في بيته، يستبد به غضب لا جدوى منه ضد منفضة لا تنكسر. وعاد إلى الفراش، وأطفأ المصباح، واعترف برهة لنفسه بأنه كان شقيا، قبل أن ينام، ويده على قلبه.

## الفصل الثامن عشر

والتقوا عند باب مطعم، ذات مساء، فأدوا ثلاثتهم ذلك "**الباليه**" الصغير، وما أكثر ما تجري في باريس حركاته التقليدية العجيبة!.. أومأت هي برأسها إيماءة نائية للرجل الذي على كتفه قد تأوهت، وتنهدت، وقدت، وبادلها الإيماءة بلا رشاقة، ورمقه "**سيمون**" لحظة دون أن يضربه كما كان ينبغي. وجلسوا إلى مائدتين، متباعدتين بعدا كافيا، وأمرت بأصناف طعامها دون أن ترفع عينيها. وفي نظر صاحب المطعم، وفي نظر بضعة العملاء الذين كانوا يعرفون "**بول**"، كان هذا مشهدا عاديا تماما. وطلب "**سيمون**" شرابه بصوت وطيد، وسأل "**روجيه**" رفيقته -حول المائدة الأخرى- أي "**كوكتيل**" تفضل. وأخيرا رفعت "**بول**" عينيها، فابتسمت لـ"**سيمون**"، ومدت بصرها في اتجاه "**روجيه**". لقد كانت تحبه، وقد طرقتها هذه البداهة منذ رأته لدى الباب بمحياه العنيد: أنها مازالت تحبه، وها هي ذي تخرج من سبات طويل عديم الجدوى. ونظر إليها بدوره، ثم حاول أن يأتي بابتسامة، لكنها غاضت في الحال.

وقال "**سيمون**":

- ماذا تتناولين؟ هل لك في شراب أبيض؟

- ولم لا؟

وراحت تنظر إلى يديه على المائدة، وإلى الأطباق المنضودة في وضع حسن، وإلى ردن "**سيمون**" إزاء ذراعها العارية، وشربت بسرعة شديدة. وكان "**سيمون**" يتحدث في غير تدفقه المعهود. كان يلوح عليه أنه ينتظر شيئا ما منها -أو من "**روجيه**". ولكن ماذا؟ أكانت تستطيع أن تنهض وتقول له: "معذرة"؟.. أكانت تستطيع أن تخترق القاعة وتقول لـ"**روجيه**": "حسبنا هذا، ولنرجع؟.. ما كان هذا بالذي يجوز فعله. والحق أنه لم يعد يجوز فعل أي شيء ذكي أو رقيق في هذا العصر.

وبعد العشاء، رقص القوم. ورأت "**روجيه**" يخاصر امرأة سمراء، ليست مسرفة في القبح هذه المرة، رأت "**روجيه**" وقد مضى يترنح أمامها في رعونته المألوفة.

ونهض "**سيمون**"، وكان يحسن الرقص وهو يرخي جفنيه قليلا، وكان لين العود أهيف القد، وكان يدندن، فتركت نفسها تنساق. وذات لحظة، مست ذراعها العارية يد

"**روجيه**"، المطبقة على ظهر السمراء، ففتحت عينيها. وتبادلا **النظر، هذا "روجيه"**، وهذه "**بول**"، وكلاهما وراء كتف شخص آخر. وكانت تلك **رقصة بطيئة**، بلا إيقاع، ساكنة، فجعل كل منهما يتأمل الآخر على قيد عشرة سنتيمترات، دون أدنى تعبير، دون ابتسام، ودون تعارف –في ظاهر الأمر– ثم تخلت بغتة يد "**روجيه**" عن ظهر المرأة، وامتدت نحو ذراع "**بول**"، فلامستها بأطراف الأنامل، وكان على وجهه من بليغ التوسل ماتجنبته بإغماض عينيها، ودار "**سيمون**"، فغاب كل منهما عن بصر صاحبه.

في تلك الليلة، رفضت أن تنام مع "**سيمون**"، متذرعة بتعب لم تكن تحس به. وظلت في سريرها مدة طويلة، مفتوحة العينين. لقد كانت تعرف ما سوف يحدث، كانت تعرف أنه لا يوجد، ولم يوجد يوما على الإطلاق حل آخر ممكن، وباتت في الظلام تذعن لهذا الحل، والشجو يقبض صدرها. وفي وسط الليل، قامت، وذهبت إلى غرفة الاستقبال، حيث كان "**سيمون**" راقدا، بعرض الأريكة. وكانت ترى في مجرى الدور المائل المنبعث من غرفتها، جسم الفتى المديد، وخفق أنفاسه. وقفت تنظر إلى رأسه الغائر في الوسادة، وإلى الأخدود الصغير بين فقرتين من فقرات رقبته، فكانت تنظر إلى شبابها هي نائما. ولكنه لم يكد يستدير وهو يجار نحو النور، حتى ولت هاربة. ما كانت منذ ذلك الحين تجرؤ على أن تكلمه.

وفي صباح اليوم التالي، كان خطاب "**روجيه**" المستعجل ينتظرها في المكتب. لابد أن أراك، فإن هذا الحال لا يمكن أن يستمر. اتصلي بي تليفونيا. فاتصلت. واتفقا على أن يلتقيا في الساعة السادسة مساء. ولكنه،بعد انقضاء عشر دقائق، كان هناك، لاح جسيما في متجر السيدات ذاك، تائها. وأقبلت عليه، فادخلته إلى حجرة استقبال غاصة بالكراسي الخيزرانية المذهبة، ياله من إطار كابوس! وإذ ذاك فقط، رأته. لقد كان هو بنفسه. وخطا خطوة نحوها، ووضع يديه على كتفيها. وكان يتلعثم في الكلام، مما يدل لديه على أقصى الانفعال.

قال: "كم كنت شقيا!"

فسمعت نفسها تجيب، وقد اعتمدت قليلا عليه:

– وأنا أيضا.

ثم طفقت تبكي، متوسلة في داخل نفسها لـ"**سيمون**" كي يغفر لها هاتين الكلمتين الأخيرتين.

وكان قد حط رأسه على شعرها، وهو يقول: "كفاك بكاء"، بصوت أبله.

وأخيرا قالت في لهجة الاعتذار:

– لقد حاولت.. لقد حاولت.. حقا..

ثم أدركت أنه ما كان ينبغي أن توجه إليه هو هذا القول، بل إلى "**سيمون**". واختلط عليها الأمر. إنما يجب الانتباه دائما، ولا يصح لامرئ أبدا أن يقول كل شيء لنفس الشخص. واستمر دمعها يهطل، وهي جامدة الوجه. وظل هو صامتا. فتمتمت:

– قل شيئا ما.

– كنت وحيدا مستوحشا، ولقد فكرت. اجلسي هنا، وخذي منديلي. سأشرح لك.

وشرح لها. شرح لها أنه لابد من مراقبة النساء، وأنه كان مهملا فلم يحترس، وأنه قد تبين أن هذا كله كان نتيجة خطئه. أنه ما كان يحس موجدة عليها لتقلبها. ولن يذكرا ذلك فيما بعد. فكانت تقول: "نعم، نعم، نعم يا "**روجيه**"" وكانت نفسها تنازعها إلى أن تنغمر في البكاء وأن تضج بالضحك!.. وفي الوقت ذاته، كانت تستنشق رائحة جسمه الأليفة، ورائحة تبغه، فتشعر بالنجاة.. وبالهلاك.

*****

وبعد عشرة أيام، كانت في بيتها، تنفرد بـ"**سيمون**" للمرة الأخيرة. قالت: "إنك تنسى هذا".

ومدت يدها برباطي عنقه، وهي لا تنظر إليه، فقد كانت تحس بأن قواها قد نفدت. كادت تنقضي الآن عليها ساعتان وهي تعينه في حزم أمتعته. وما أخف ما يحمله فتى عاشق، بيد أنه عديم النظام! ففي كل مكان كانا يجدان قداحة "**سيمون**"، وكتب "**سيمون**"، وأحذية "**سيمون**". ولم يكن قد تفوه بكلمة، وإنما استمسك بالجد والرزانة، وكان يعي ما يفعل، وكان هذا يخنقه.

قال: "كفاية. ما عليك إلا أن تودعي الباقي لدى البواب.

ولم تجب. وألقى نظرة حوله، وهو يريد أن يتمثل فكرة "المرة الأخيرة، المرة الأخيرة"، ولكنه لم يفلح في ذلك. لقد كان يرتجف ارتجافا عصبيا.

قالت "**بول**" : "لن أنسى" .

ورفعت عينيها نحوه .

فقال : "وأنا أيضا . إنما أعني شيئا آخر، شيئا آخر . ." وترنح في منتصف الطريق قبل أن يلقي إليها وجهه الحائل . فاسندته بين ذراعيها، مرة أخرى أيضا، أسندت أساه كما سبق لها أن أسندت هناءه . ولم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من أن تحسده لهذا الأسى العاتي، فهو أسى جميل، ألم رائع لن يتاح لها مثله بعد ذلك أبدا . وانفلت فجأة وخرج، تاركا متاعه . وتبعته، وانحنت على سياج السلم تصيح باسمه :

- "**سيمون**"، "**سيمون**" . . .

وأضافت دون أن تدري لماذا :

- "**سيمون**"، إنني الآن عجوز، عجوز . .

ولكنه ما كان يسمعها . كان يهرول على السلم، وملء عينيه الدموع . . كان يهرول وكأنه يطفر طفرات إنسان سعيد . . كان في الخامسة والعشرين من العمر . . وأعادت إغلاق الباب، في أناة، واعتمدت بظهرها عليه .

وفي الساعة الثامنة، دق جرس التليفون . ومن قبل أن ترفع السماعة، كانت تعلم ما الذي ستسمعه . إنه "**روجيه**" يقول :

- إنني أعتذر، سأتناول العشاء مع بعض رجال الأعمال، وسوف آتي فيما بعد، فهل . .

## تمّت بعون الله